ق
74

مع أعلام المفسرين

٢

تفسير السور الكر

سورة الكهف

مريم

يس

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

طبع على نفقة المحسن الكبير
السيد حسن عباس شربتلي

مؤسسة مناهل العرفان

Marfat.com

300/1

تفسيرٌ جامع للمأثور والمعقول ، مُستمدّ من أوثق كتب التفسير
« الطبَري ، الكشاف ، القرطبي ، ابن كثير، البيضاوي »
وغيرها ، بأسلوب ميسّر مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

مع أعلام المفسّرين

Marfat.com

86074

~~68574~~

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م

مؤسسة مناهل العرفان
دمشق - بيروت

Marfat.com

300/1

مع أعلام المفسرين

تفسير السور الكريمة

سورة الكهف

مريم

يس

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

Marfat.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فان القرآن العظيم سبيل السعادة وطريق النجاة، ومن واجب المسلمين أن يقرؤوه بإمعانٍ ، ويتدبروا معانيه ، ويدركوا أسراره ، ويعملوا بمقتضى ما فيه عملاً بقوله تعالى ﴿كتابٌ أنزلناه إليكَ مبارك ليدَّبروا آياتهِ ، وليتذكّر أولو الألباب﴾ وإذا كان المسلمون قد اضطرتهم الدنيا ليشغلوا أوقاتهم في تحصيل معاشهم ، وضاقت أيامهم عن الرجوع الى التفاسير الكبيرة ، التي خدم بها أسلافنا كتاب الله تعالى ، توضيحاً لمعانيه ، وإظهاراً لإعجازه ، وتفصيلاً لأحكامه ، وإبرازاً لما حواه من تشريع وتهذيب ، وإحكام وأخلاق ، وتربية وتوجيه .. فإن من واجب أهل العلم أن يبذلوا جهدهم ليتيسر فهمه على الناس ، بأسلوب واضح ، وبيان ناصع ، لا حشو فيه ، ولا تطويل ، ولا تعقيد ولا تكليف ، وأن يُبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان .

ولقد وفقني الله سبحانه – وله الحمد والمنة – لإخراج تفسير جامع لعيون الأقوال ، لمشاهير المفسرين ، مع الاختصار والترتيب ، وأختيار أصح وأرجح الأقوال ، يجمع بين المأثور والمعقول ، والوضوح والبيان أسميته « صفوة التفاسير »

Marfat.com

سيطبع قريباً إن شاء الله ، وها أنا أفرد منه تفسير السور الكريمة « الكهف ، ومريم ، ويس » برسالة خاصة لحاجة إخواننا المؤمنين إليها .

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة الكتاب العزيز إنه سميع مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

محمد علي الصابوني
عفى عنه

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

Marfat.com

طريقة البحث في هذا التفسير
المسمَّى « صفوة التفاسير »

أولاً : بين يديْ السورة .

خلاصة للمقاصد الأساسية للسورة الكريمة .

ثانياً : سبب النزول .

توضيح السبب الذي نزلت من أجله الآيات .

ثالثاً : المناسبة .

الربط بين الآيات السابقة واللاحقة .

رابعاً : **اللغة** .

بيان الاشتقاق مع الاستشهاد بآراء اللغويين .

خامساً : البلاغة .

بيان الصور البيانية والنكات البلاغية .

سادساً : التفسير :

تفسير الآيات فقط دون وجوه الإعراب والقراءات

سابعاً : الفوائد .

الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها .

Marfat.com

« مزايا التفسير »

١ – هو خلاصة لأقوال مشاهير المفسرين المعتمدة .
٢ – يجمع بين المأثور والمعقول من أقوال السلف والخلف .
٣ – يقتصر فيه على أرجح الأقوال وأصحها .
٤ – يمتاز بالدقة والتحقيق مع سلاسة العبارة وسهولتها .

والله ولي التوفيق

Marfat.com

(١٨) سُورَةُ الكَهْفِ مَكِّيَّة وآيَاتُها عَشْرٌ ومَائَة

بَيْنَ يَدَي السُّورَة

سورةُ الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سورٍ خمسٍ بُدئت بـ « الحمدُ لله » وهذه السور هي « الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر » وكلُّها تبتدىء بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

● **تعرضت** السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال .. أما الأولى فهي قصة « أصحاب الكهف » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .

● **والقصة الثانية** : قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح « الخضر » ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار .

● **والقصة الثالثة** : قصة « ذي القرنين » وهو ملك مكَّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

● وكما استخدمت السورة – في سبيل هدفها – هذه القصص الثلاث ، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحقَّ لا يرتبط بكثرة

Marfat.com

المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة ، **المثل الأول** : للغني المزهو بماله ، والفقير المعتز بعقيدته ، وإيمانه في قصة أصحاب الجنتين . **والثاني** : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، **والثالث** : مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية : سميت « سورة الكهف » لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف .

قال تعالى ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ... إلى ولا يُشركُ في حكمهِ أحداً﴾

« من آية « ١ » إلى آية « ٢٦ » »

● ● ● ●

اللغـــــة

﴿ باخع﴾ قاتلٌ ومهلكٌ قال الليث : بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصلُ البخع الجهد كما قال الفراء ﴿ جُرُزاً﴾ الجُرز : الأرض التي لا نبات عليها ﴿ الكهف﴾ النقب المتسع في الجبل وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿ الرقيم﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿ شططاً﴾ الشطط : الجور والغلو وتعدي الحد **قال الفراء** : اشتط في الأمر جاوز الحد ، وشطَّ المنزل بَعد ﴿ تَزَاور﴾ تتنحىَّ وتميل من الازورار بمعنى الميل قال عنتره « وازْوَرَّ من وَقْع القَنَا بلَبَانِه » ﴿ الوصيد﴾ الفِنَاء أي فناء الكهف ﴿ فجوة﴾ متَّسع من المكان ﴿ وَرِقِكم﴾ الوَرِقُ اسمٌ للفضة سواءً كانت مضروبةً أم لا ﴿ أعثرنا﴾ أطلعنا ﴿ تمار﴾ تجادل والمِرَاءُ : المجادلة .

Marfat.com

التفسير

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ أي الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال للَّه الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿ولم يجعل له عِوَجاً﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه ، وليس فيه أي عيبٍ أو تناقض ﴿قيّماً﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض **قال الطبري** : هذا من المُقَدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق [1] ، ﴿لينذر بأساً شديداً من لَدُنْه﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ أي ويبشّر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ماكثين فيه أبداً﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ أي ويخوّف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم **قال البيضاوي** : خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المُنْذَر به استغناءً بتقدم ذكره [2] ﴿ما لهم به من علم﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيءٌ من العلم أصلاً ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في بيداء الجهالة والضلالة ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ؟ خرجت من أفواهَ أولئك المجرمين ، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً وسفهاً وزوراً ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسك

---

(١) الطبري ١٥/١٩٠

(٢) البيضاوي ٢/٢ .

Marfat.com

على آثارهم﴾ أي فلعلك قاتلٌ نفسك يا محمد ومهلكها غمّاً وحزناً على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أَسَفاً﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفاً عليهم ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسليةٌ للنبي عليه السلام ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسنَ عملاً لآخرته ﴿وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهجة **قال القرطبي**: الآية وردت لتسلية النبي (ﷺ) والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظمنَّ عليك كفرهُم فإنا سنجازيهم (١) ﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ ؟ بدء قصة أصحاب الكهف ، والكهفُ الغار المتسِع في الجبل ، والرقيمُ اللوحِ الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور **والمعنى** : لا تظننَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف – على غرابتها – هي أعجبُ آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف **قال مجاهد** : أحسبتَ أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب (٢) منهم ﴿إذْ أوى الفتية إلى الكهف (٣)﴾ أي اذكر حين التجأ الشبان

---

(١) القرطبي ١٠/٣٥٤ .

(٢) زاد المسير ٥/١٠٨ .

(٣) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدةٍ من بلاد الروم تدعى « طرسوس » بعد زمن عيسى عليه السلام ، وكان

Marfat.com

إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم ﴿ فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿ وهَيِّء لنا من أمرنا رَشَداً﴾ أي أصلح لنا أمرنا كلَّه واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ أي ألقينا عليهم النوم

يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرُهم الملكَ الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان يذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا « ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعوَ من دونه إلهاً » فقال لهم : إنكم فتيانٌ حديثةٌ أسنانكم وقد أخّرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك : سدّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه : لعلي أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشترى طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود ؟ واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً ؟ فقال لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي ، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس ، قال : وما فعل دقيانوس ؟ قالوا مات من قرون عديدة ، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله : لقد كنا فتيةً وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك - وكان مؤمناً صالحاً - فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجَلَبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس : لنتخذن عليهم مسجداً .

Marfat.com

في الغار سنين عديدة ﴿ثُمَّ بعثْنَاهم لِنعلَمَ أيُّ الحِزبَيْن أَحْصى لما لَبِثُوا أَمَدَاً﴾ أيْ ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أيَّ الفريقين أدقُّ إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟ **قال في التسهيل** : والمراد بالحزبين : أصحابُ الكهف ، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم (١) **وقال مجاهد** : الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم : يوماً أو بعض يوم وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم (٢) ، والقول الأول مروي عن ابن عباس ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادةٍ ولا نقصان ﴿إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق معتزةً بالإيمان ﴿إذْ قَامُوا فقالوا ربُّنا رب السموات والأرض﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالوا ربنا هو خالق السموات والأرض لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لن ندعوَ من دونه إلهاً﴾ أي لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لقد قلنا إذاً شطَطَاً﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحقَّ ، وحُدْنا عن الصواب ، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ﴿لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيّن﴾ أي أي هلاّ يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر ، والغرضُ من التحضيض « لولا » التعجيز كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة

---

(١) التسهيل ٢/١٨٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٣/٧ .

Marfat.com

على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كذبة على الله [1] ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على على الله بنسبة الشريك إليه تعالى ﴿وإِذْ اعتزلتموهم وما يَعبدون إلا الله﴾ أي وإذْ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي التجئوا إلى الكهف ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾ أي يبسط ربكم ويوسّعْ عليكم رحمته ﴿ويهيء لكم من أمركم مِرْفقاً﴾ أي يُسهّل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار ﴿وترى الشمس إذا طلعتْ تَزَاورُ عن كهفهم ذات اليمين﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ﴿وإذا غربتْ تقرضِهم ذات الشمال﴾ أي وإذا غربتْ تقطعهم وتُبعد عنهم جهة الشمال **والغرض** أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامة لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرّها ﴿وهم في فجوةٍ منه﴾ أي في متّسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره ﴿ذلك من آيات الله﴾ أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة **قال ابن عباس** : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يُقلَّبون لأكلتهم

---

(١) يقول الشهيد « سيد قطب » في الظلال : « وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردُّد فيه ولا تلعثم ، إنهم فتيةٌ أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم ، أشداء في استنكار ما عليه قومهم ، ولقد تبيَّن الطريقان فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا بدَّ من الفرار بالعقيدة .. إنهم فتية تبيَّن لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم ثم يأوون إلى الكهف الضيّق المظلم يستروحون فيه رحمة الله ، فإذا الكهف فضاء فسيح تنتشر فيه الرحمة ويمتد ظلالها فتشملهم بالرفق والرخاء واللين . الظلال ١٣/١٥ .

Marfat.com

الأرض [1] ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي من يوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً ﴿ومن يُضْلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجدله من يهديه ﴿وتحسبُهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿ونُقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ أي ونقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم ﴿وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم باسطٌ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لو اطَّلعْتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِرَاراً ولَمُلِئتَ منهم رعباً﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ، فرؤيتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿قال قائلٌ منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال أحدهم : كم مكِثنا في هذا الكهف ؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم **قال المفسرون** : إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً ، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم ، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قالوا ربكم **اعلم** بما لبثتم﴾ أي قال بعضهم : الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا مما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿فابعثوا أحدكم بوَرِقِكم هذه إلى المدينة﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضيّة ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ أي فليختر لنا أحلَّ

---

(١) الطبري ١٥/٢١١ .

Marfat.com

وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وليتلطّفْ ولا يُشْعرنَّ بكم أحداً﴾ أي وليتلطفْ في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم﴾ أي ان يظفروا بكم يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿ولن تُفْلحوا إذاً أبداً﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخيرٍ أبداً . وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيطة والحذر ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنَّ وعد الله حقٌّ وأن الساعة لا ريب فيها﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها . فتكون قصة اصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن اطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم ﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ أي قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون عَلَماً عليهم ﴿ربهم أعلم بهم﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجداً﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة : لنتخذن على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم ﴿ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبُهم رجماً بالغيب﴾ أي ويقول البعض : إنهم خمسةٌ وسادسهم الكلب قذفاً بالظنِّ من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ﴿ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعةٌ والثامن هو الكلب

Marfat.com

﴿ قلْ ربي أعلمُ بعدتهم﴾ أي الله أعلمُ بحقيقة عددهم ﴿ ما يعلمهم إلا قليل﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس **قال ابن عباس** : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعةً إن الله عدَّهم حتى انتهى إلى السبعة (١) **قال المفسرون** : إن الله تعالى لمّا ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله « رجماً بالغيب » ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكأنه أقر قائله ثم نبَّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو ردُّ العلم إلى علام الغيوب ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ أي فلا تجادلْ أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر ﴿ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإنَّ فيما أوحي إليك الكفاية ﴿ ولا تقولَنَّ لِشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ أي لا تقولنَّ لأمرٍ عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله **قال ابن كثير** : سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال : « غداً أجيبكم » فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً (٢) ﴿ واذكر ربك إذا نسيت﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرةً عظمة الله ﴿ وقل عسى أن يهديني ربي لأقربَ من هذا رَشداً﴾ أي لعلَّ الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين ، وهذا بيانٌ لما أُجمل في قوله تعالى « سنين عدداً » ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين (له غيب السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيم الخبير ﴿أَبْصِرْ بهِ وأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره

---

(١) زاد المسير ١٢٦/٥ .

(٢) فختصر ابن كثير ٤١٥/٢ .

Marfat.com

بكل موجود ، وما اسمعه لكل مسموع ، يدرك الخفيّات كما يدرك الجليّات ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿ولا يُشْركُ في حكمه أحداً﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير ، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغَني عما سواه .

البـــلاغـــة

تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي : ١ - الطباق بين ﴿يبشر.. وينذر﴾ وبين ﴿يهدي .. ويضلل﴾ وبين ﴿أيقاظاً .. ورقود﴾ وبين ﴿ذات اليمين .. وذات الشمال﴾ ٢ - الطباق المعنوي بين ﴿فضربنا على آذانهم .. ثم بعثناهم ﴾ لأن معنى الأول أنمناهم والثاني أيقظناهم ٣ - الجناس الناقص بين ﴿ قاموا .. وقالوا) ٤ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ لشناعة دعوى الولد لله ، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً ، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ عذاباً شديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرَين لدلالة الثاني عليه ، وهذا من ألطف الفصاحة ٥ - ﴿صيغة التعجب﴾ أسمعْ به وأبْصِرْ ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿باخعٌ نفسك على آثارهم﴾ شبَّه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقته الأحباب فهمَّ بقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم ٧ - الاستعارة التبعية ﴿فضربنا على آذانهم﴾ شبّهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية . **قال تعالى**

Marfat.com

﴿ واتل ما اوحي إليك من كتاب ربك .. إلى قوله ولم يجدوا عنها مَصْرِفاً ﴾

« من آية « ٢٧ » إلى آية « ٥٣ » »

● ● ● ●

المناسبة

لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تُمثّل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان ، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل : المؤمن المعتز بإيمانه ، والكافر وهو صاحب الجنتين ، وما فيها من عبر وعظات ، وفي ثنايا الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة .

اللغة

﴿ ملتحداً ﴾ ملجأ وأصله من لَحَد إذا مال ، ومن لجأتَ إليه فقد ملتَ إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿ فُرُطاً ﴾ مجاوزاً للحدّ من قولهم فرسٌ فُرُط إذا كان متقدماً للخيل ، **قال الليث** : الفُرُط الأمر الذي يفرَّط فيه قال الشاعر :

لقد كلفتني شَطَطاً : وأمراً خائباً فُرُطاً [1]

﴿ سرادقها ﴾ السُّرادق : السور والحائط ﴿ المُهْل ﴾ كل ما أذيب من المعادن **قال أبو عبيدة** : كل شيءٍ أذبته من ذهب أو نحاسٍ أو فضة فهو المُهْل ﴿ سندس ﴾ السندس : الرقيق من الحرير ﴿ استبرق ﴾ الاستبرق : الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر :

تراهنَّ يلبسن المشاعر مرةً : واستبرق الديباج طوراً لباسها [2]

(١) التفسير الكبير ٢١/١١٨ .

(٢) البحر ٦/٩٤ .

Marfat.com

﴿ الأرائك﴾ جمع أريكة وهي السرير المزَّين بالثياب والستور كسرير العروس ﴿ حسباناً﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿ هشيماً﴾ الهشيم : اليابس المتكسّر من النبات ﴿ نغادر﴾ نترك .

النّـــزول

روى أن أشراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له : إن أردتَ أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك يعنون « بلالاً ، وخباباً ، وصهيباً » وغيرهم فإنا نأنف أن نجتمع بهم ، وتعيِّنُ لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿ واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم [1] .. ﴾ الآية

التفســـــير

﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك﴾ أي إقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿ لا مبدّل لكلماته﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يغيّر أو يبدّل كلام الله ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿ واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿ يريدون وجهه﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ ولا تعدُ عيناك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف **قال المفسرون** : كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأُمِرَ أن يجعلَ إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن

---

(١) التفسير الكبير ٢١/١١٥ .

Marfat.com

أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تريد زينة الحياةِ الدنيا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر **قال ابن عباس** : لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[1] ﴿ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله ، وقد شغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا **قال المفسرون** : نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم « سلمان الفارسي » وعليه شملة صوف قد عَرِقَ فيها فقال عُيينة للنبي ﷺ : أمايؤذيك ريح هؤلاء ؟ ونحن سادةُ مُضَـر وأشرافُها إن أسلمنا يسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنِحّهم عنك حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس ، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم » ﴿واتَّبع هواه﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿وكان أمره فُرُطاً﴾ أي كان أمره ضياعا وهلاكا ودماراً ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفر﴾ ظاهرُه أمرٌ وحقيقتُه وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله « اعملوا ما شئتم » ﴿إنَا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرَادقها﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حاميةً شديدة احاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم ﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أغيثوا بماءٍ شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي يشوي وجوههم إذا قُرّب منهم من شدة حره وفي الحديث « ماءٌ كعكر

---

(١) المختصر ٢/٤١٦ .

86074

Marfat.com

الزيت فإذا قُرب إليه سقطت فروة وجهه فيه »[1] أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم ﴿بئس الشراب وساءت مرتَفَقاً﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقَيلاً يرتفق به أهل النار ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب أي لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿أولئك لهم جنات عدنٍ﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يُحَلَّوْنَ فيها من أساور من ذهب﴾ أي يُحلَّون في الجنة بأساور الذهب **قال المفسرون** : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور : سوارٌ من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ ، لأن الله تعالى قال « وحلّوا أساور من فضة » وقال « ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير » وفي الحديث « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندِس واستبرق﴾ أي وهم رافلون في ألوانٍ من الحرير . برقيق الحرير وهو السندس ، وبغليظه وهو الاستبرق **قال الطبري** : معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب . ويلبسون من الثياب السندس وهو مارقَّ من الديباج ، والاستبرق وهو ما غلظ فيه وثَخُن [2] ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أي متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور **قال ابن عباس** : الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكلَّلة بالدُرّ والياقوت عليها الحِجَال . الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيلة ، وما بين عدن إلى الجابية [3] ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ أي نعم ذلك جزاء

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي كذا في ابن كثير ٢/٤١٧ .

(٢) الطبري ١٥/٢٤٣ .

(٣) القرطبي ١٠/٣٩٨ .

Marfat.com

المتقين ، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿واضربْ لهم مثلاً رجلين﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل **قال المفسرون** : هما أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بما له حديقتين ، وانفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله ، والكافر الذي أبطرته النعمة ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ أي جعلنا لأحدهما – وهو الكافر – بستانيْن من شجر العنب مثمرين بأنواع العنب اللذيذ ﴿وحففناهما بنخل﴾ أي أحطناهما بسياج من النخيل ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانيْن زرعاً ويتفجر بينهما نهر ، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكَرْم ، المحفوفتين بأشجار النخيل ، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تَظْلِمْ منه شيئاً﴾ أي كلُّ واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً ﴿وفجَّرنا خلالهما نهَراً﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وكان له ثَمَر﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نَفَراً﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصاراً وخدماً ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر ﴿قال ما أظنُّ أَنْ تَبيدَ هذه أبداً﴾ أي ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبداً ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة ، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿ولئن رددتُ إلى ربي لأجدَنَّ خيراً منها﴾ أي ولئن كان هناك

Marfat.com

بعثٌ - على سبيل الفرض والتقدير كما تزعم - فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿منقلباً﴾ أي مرجعا وعاقبة ، فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً﴾ أي أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من منيّ ثم سوَّاك إنساناً سوياً ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿لكنَّا هو اللهُ ربي﴾ أي لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ أي لا أشرك مع الله غيره ، فهو المعبودُ وحدَه لا شريك له ﴿ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت ما شاء الله﴾ أي وهلا حين دخلتَ حديقتك وأعجبك بما فيها من الأشجار والثمار قلت : هذا من فضل الله ، فما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأْ لم يكن ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿إنْ ترنِ أنَا أقلَّ منكَ مالاً وولداً﴾ أي قال المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتز عليَّ بكثرة مالك وأولادك ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ جواب الشرط إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به ، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرّب بستانك ﴿ويرسل عليها حسباناً من السماء﴾ أي يرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمّرها ﴿فتصبح صعيداً زَلَقاً﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لانبات فيها ولا شجر ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ أي يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته وردّه ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقَّق رجاءُ المؤمن بزوال النعيم عن الكافر ، وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار ﴿وأُحيط

Marfat.com

بثمره﴾ أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿فأصبح يُقلّب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي يقلّب كفيه ظهراً لبطن أَسَفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب **قال القرطبي** : أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من النادم ﴿وهي خاويةٌ على عروشها﴾ أي مهشّمة محطّمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً ﴿ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى ﴿ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿وما كان منتصراً﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿هنالك الوَلاَيةُ للهِ الحقّ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أولياءه ﴿هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقْباً﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خيرٌ عاقبةً لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض﴾ هذا مثلٌ آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي قادراً على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية ، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول

Marfat.com

﴿ والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله **قال ابن عباس** : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل عمل صالحٍ من قول أو فعلٍ يبقى للآخرة (١) وفي الحديث « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، هنَّ الباقيات الصالحات » ﴿ ويوم نسيّر الجبال﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيّرها كما نسيّر السحاب فنجعلها هباءً منبثاً ﴿ وترى الأرض بارزة﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم ﴿ وعُرضوا على ربك صفاً﴾ أي عُرضوا على رب العالمين مصطفيّن ، لا يحجبُ أحدٌ أحداً وفي الحديث « يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ صفوفاً » **قال مقاتل** : يُعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمةٍ وزمرةٍ صفاً (٢) ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا حفاةً عراةً لا شيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿ بل زعمتم ألَّنْ نجعل لكم موعداً﴾ أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء ، ولا حساب ولا عقاب ﴿ ووُضع الكتاب﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعُرضت عليهم ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿ ويقولون يا ويلتنا﴾ أي ياحسرتنا ويا

---

(١) هذا ما رجحه الطبري قال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله

(٢) القرطبي ١٠/٤١٧ .

Marfat.com

هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها ؟ قال تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾ أي مكتوباً مثبتاً في الكتاب ﴿ ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي لا نعاقب إنساناً بغير جرم ، ولا ننقص من ثواب المحسن ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه ، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من لا من الملائكة (١) ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم أعداء ﴿ بئس للظالمين بدلاً﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿ ولا خلق أنفسهم﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿ وما كنتُ متَخَذ المضلين عَضُداً﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني ؟ ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين : أُدعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً﴾ أي جعلنا بين العابدين و بودين مهلكةً لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ أي عاينوها وهي تتغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم

(١) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا « النبوة والأنبياء » على أن ابليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨ .

Marfat.com

داخلوها ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدروا على الهرب منها .

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي : ١ – الطباق بين ﴿ الغداة .. والعشي﴾ وبين ﴿ فليؤمن .. فليكفر﴾ ٢ – المقابلة البديعة بين الجنة ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ وبين النار ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ ٣ – التشبيه ﴿ بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾ ويسمى مرسلاً مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه ٤ – التشبيه التمثيلي ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه﴾ ٥ – المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً ٦ – الكناية ﴿ يقلّب كفيه﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله ٧ – الإنكار والتعجيب ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء﴾ ؟ .

تنبيه

الجمهور على أن الباقيات الصالحات هن الكلمات المأثور فضلها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : لقيتُ إبراهيم ليلةَ أُسري بي فقال يا محمد : أَقْرِئْ أمتَك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذي .

Marfat.com

قال الله تعالى :

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل .. إلى ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً﴾

« من آية « ٥٤ » إلى آية « ٨٢ » »

● ● ● ●

المناسبة

لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين ، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل ، نبَّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي « العظة والاعتبار » ثم ذكر القصة الثالثة « قصة موسى مع الخضر » وما فيها من أمور غيبية عجيبة .

اللغة

﴿ قُبُلاً﴾ مقابلةً وعياناً ﴿ مَوْئلاً﴾ ملجا ومنجى قال ابن قتيبة : وأَلَ فلان إلىٰ كذا لجأ إليه وألاً ووءولاً والموئل : الملجأ قال الأعشى :

وقد أُخَالِسُ ربَّ البيْتِ غفْلَتَه : وقد يحاذِرُ مني ثم لا يَئِلُ (١)

﴿ حُقُباً﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقُب هنا الزمان الطويل ﴿ سَرَباً﴾ السَّرب : المسلك في جوف الأرض ﴿ نَصَباً﴾ النَّصَب : التعب والمشقة ﴿ إمْراً﴾ أمراً عظيماً يقال : أَمِرَ الأَمْرُ إذا عظم ﴿ نُكْراً﴾ منكراً فظيعاً جداً .

التفسير

﴿ ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ أي بيَّنا في هذا

---

(١) البحر ٦/١٣٢ .

Marfat.com

القرآن الأمثال وكرَّرنا الحجج والمواعظ ﴿وكان الإنسان أكثرَ شيءٍ جَدَلاً﴾ أي وطبيعة الإنسان االجدلُ والخصومة لا ينيب لحقٍ ولا يتزجر لموعظة ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهُدَى﴾ أي ما منع الناسَ من الإيمان حين جاءهم الهُدى من الله ﴿ويستغفروا ربهَّم﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إلاّ أن تأتيهم سنةُ الأولين﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أو يأتيهم العذابُ قُبُلاً﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم « فأَمطِرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم [1] » ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار ، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿ويجادلُ الذين كفروا بالباطل ليُدْحضوا به الحق﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿واتَّخذوا آياتي وما أُنْذِروا هُزُواً﴾ أي اتخذوا القرآن وما خُوِّفوا به من العذاب سخرية واستهزاءً ﴿ومَنْ أظلمُ ممَّنْ ذُكِرَ بآياتِ ربهِ فأعرضَ عنها﴾ أي لا أحد أظلمُ ممن وُعظ بآياتِ الله البينة ، وحججه الساطعة ، فتعامى عنها وتناساها ولم يُلْقِ لها بالاً ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ أي نسي ما عملهُ من الجرائم الشنيعة ، والأفعال القبيحة ، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره ، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي وفي آذانهم صمَماً معنوياً يمنعهم

---

(١) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير ، كذا في المختصر ٢/٤٢٥ .

Marfat.com

أن يستمعوه سماع تفهم وانتفاع ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾ أي وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى قلوبٌ متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام ﴿وربُّك الغفورُ ذو الرحمة﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجَّل لهم العذاب﴾ أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجَّل لهم عذاب الدنيا ، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمةً بهم ، وقد جرت سنته بأن يمهل الظالم ولكن لا يهمله ﴿بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأً ولا منجى ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدَّداً معلوماً ، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش **قال ابن كثير** : والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبيٍّ وأشرف رسول ، ولستم بأعزَّ علينا منهم فخافوا عذابي ونُذري [1] ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة والمعنى اذكر حين قال موسى الكليم لفتاه «يوشع بن نون» لا أزال أسير وأتابع السير حتى أصل إلى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين [2] ﴿أو أمضيَ حُقباً﴾ أي أسير زماناً طويلاً إلى أن أبلغ

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٤٢٦ .

(٢) هكذا نقل الطبري عن قتادة ١٥/٢٧١ .

Marfat.com

ذلك المكان ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي « يوشع » أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب ، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مِكْتَل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً﴾ أي اتخذ الحوتُ سبيله في البحر مسلكاً **قال المفسرون** : كان الحوت مشوياً فخرج من المِكْتَل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله وكان ذلك آيةً من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿ فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ أي فلما قطعا ذلك المكان وهو مجمع البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة قال موسى لفتاه أعطنا طعام الغداء ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي لقينا في هذا السفر العناء والتعب ، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿ قال أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت﴾ أي قال الفتى « يوشع بن نون » حين طلب موسى منه الحوت للغداء أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب ؟ لقد خرج الحوتُ من المكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة وقد نسيت أن أذكر لك ذلك حين استيقظتَ ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره﴾ أي وقد أنسَاني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ أي واتخذ الحوتُ طريقه في البحر وكان أمره عَجَباً ، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبَّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿ قال ذلك ما كنّا نبغ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة علىَ غرضنا وهو لُقْيا الرجل الصالح ﴿ فارتدا على آثارهما قَصَصاً﴾ أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا﴾ أي وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت ، وفي الحديث

Marfat.com

أن موسى وجد الخضر مسجًّى بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنّى بأرضك السلام [1] ؟ ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه [2] ﴿وعلمناه من لَدُنَّا علماً﴾ أي علماً خاصاً بنا لا يُعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب **قال العلماء** : هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى « العلم اللدني » يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصَّه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿قال له موسى هل هل أتبَّعك على أنْ تُعلّمنِ ممّا عُلّمتَ رُشْداً﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي ؟ **قال المفسرون** : هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبيّ الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي قال الخضر : إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى **قال ابن عباس** : لن تصبر على صنعي لأني علمتُ من غيب علم ربي ﴿وكيف تصبرُ على ما لم تُحطْ به خبراً﴾ أي كيف تصبر على أمر ظاهره منكرٌ وأنت لا تعلم باطنه ؟ ﴿قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ أي قال موسى ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله ﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدث لك منه ذكراً﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل موسى شرطه رعايةً لأدب

---

(١) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله .

(٢) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق فضل العبودية

Marfat.com

المتعلم مع العالم ، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبيّنه لك بنفسي ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر ﴿ قال أخرقتها لتغرق أهلها﴾ أي قال له موسى مستنكراً : أخرقت السفينة لتغرق الركاب ؟ ﴿ لقد جئت شيئاً إمْراً﴾ أي فعلتَ شيئاً عظيماً هائلاً ، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر : قومٌ حملونا بغير أجر عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً ! ! ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي ؟ ذكَّره بلطفٍ في مخالفته الشرط ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيتُ﴾ أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿ ولا تُرهقني من أمري عُسْراً﴾ أي لا تكلفني مشقةً في صحبتي إياك وعاملني باليُسر لا بالعُسر ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرَّا بغلمانٍ يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿ قال أقتلت نفساً زكيَّةً بغير نفسٍ﴾ أي قال موسى : أقتلت نفساً طاهرةً لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿ لقد جئتَ شيئاً نُكْراً﴾ أي فعلت شيئاً منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه .. لم يكنْ موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن يُنكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده ، وقال هنا « نُكراً » أي منكراً فظيعاً وهو أبلغ من قوله « إمْراً » في الآية السابقة ، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر « أقتلتَ نفساً زكيَّة » غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في

Marfat.com

عظم كتفه كافرٌ لا يؤمنُ باللهِ أبداً [1] ﴿ قال ألم أقل لكَ إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي ألم أقل لك أنتَ على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني ؟ **قال المفسرون** : وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله « لكَ » لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿ قال إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبْني﴾ أي إن أنكرتُ عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿ قد بلغتَ من لدنيّ عُذْراً﴾ أي قد أعذرتَ إليَّ في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلَها فأَبَوْا أن يضيّفوهما﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية **قال ابن عباس** : هي انطاكية فطلبا طعاماً وكان أهلها لئاماً لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً ، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن يَنْقضَّ﴾ أي وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿ فأقامه﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام ، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مرويٌّ عن ابن عباس ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام ! ! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله ، روي أن موسى قال للخضر : قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضفناهم فلم يضيّفونا ثم قعدتَ تبني لهم الجدار لوشئتَ لاتخذت عليه أجراً ! ﴿ قال هذا فراقُ بيني وبينك﴾ أي قال الخضر : هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة التي لم تستطع الصبر عليها ، وفي الحديث « رحم الله أخي موسى

---

(١) القرطبي ١١/٢٢ .

Marfat.com

لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب » ﴿أمَّا السفينة فكانتْ لمساكين يعملونَ في البحر﴾ هذا بيانٌ وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبراً والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فأردتُ أنْ أعيبها﴾ أي أردتُ بخرقها أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالمٌ ﴿يأخذ كل سفِينةٍ غصباً﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ أي وأما الغلام الذي قتلتُه فكان كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث « إنَّ الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهقَ أبو يه طغياناً وكفراً » (١) ﴿فخشينا أن يُرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي فخفنا أن يحملهما حبُّه على اتباعه في الكفر والضلال ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْماً﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقربَ براً ورحمة بوالديه ﴿وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما﴾ أي وأما الجدار الذي بنيتُه دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبىء تحته كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح (٢) الوالد **قال المفسرون** : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ؛ وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رحمةً من ربك﴾ أي رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما ﴿وما فعلتُه عن

(١) رواه مسلم .

(٢) قيل إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرةً وهو الأرجح .

Marfat.com

أمري﴾ أي مافعلت الذي رأيته من خَرْقِ السفينةِ ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأي واجتهادي ، بل فعلتُه بأمر الله وإلهامه ﴿ ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضتَ فيها قبل أن أخبرك عنها .

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :
١ – الطباق بين ﴿مبشرين ومنذرين﴾ و ﴿نسيت .. وأذكر﴾
٢ – اللف والنشر المرتَّب ﴿أما السفينةُ﴾ ﴿وأما الغلام﴾ ﴿وأما الجدار﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتِّب ٣ – الحذف بالإيجاز ﴿كل سفينة﴾ أي صالحةٍ حذف لدلالة لفظ « أعيبها » وكذلك حذف لفظ كافر من « وأما الغلام » لدلالة قوله تعالى « فكان أبواه مؤمنين » ٤ – التغليب (أبواه) المراد أبوه وأمه ٥ – الاستعارة (يريد أن ينقضَّ) لأن الإرادة صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبليغ المجاز كقول الشاعر :

يريد الرمحُ صدرَ أبي براءٍ : ويرغب عن دماء بني عقيل [1]

٦ – التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿ عبداً من عبادنا﴾ ٧ – السجع ﴿ نَصَباً ، سَرَباً ، عَجَباً﴾ ٨ – تعليم الأدب ﴿ فأردتُ أن أعيبها﴾ وهناك قال ﴿ فأراد ربك﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه والخير الى الله.

« قصة موسى والخضر كما في الصحيحين »

عن أبيّ بن كعب عن رسول الله (ﷺ) أنه قال : « إن موسى قام خطيباً فى بني إسرائيل فسئل أيُّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا فعتب الله عز

---

(١) الطبري ١٥/٢٨٩ .

Marfat.com

وجل عليه إذْ لم يَرُدَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أَنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتَل فحيثما فقدتَ الحوتَ فهوثَمَّ ، فانطلق موسى ومعه فتاه « يوشع بن نون » حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت في المِكْتَل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً ، وأمسك الله عن الحوت جرْية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً – قال ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به – فقال فتاه « أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً » قال فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عَجَباً فقال موسى « ذلك ما كنّا نبغِ فارتدا على آثارهما قَصَصاً » قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجَّىً بثوب فسلَّم عليه موسى فقال الخضر : وأنَّى بأرضك السلام [1] ! من أنتَ ؟ قال : أنا موسى ، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما عُلّمت رُشْداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً .. يا موسى إني على علمٍ من علم الله لا تعلُمه علَّمنيه ، وأنتَ على علمٍ من علم الله علَّمكه لا أعلمه ، فقال موسى « ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً » فقال له الخضر « فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحدث لك منه ذكراً » فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْل – أي بدون أجر – فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة

---

(١) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام ؟

Marfat.com

بالقدوم ، فقال له موسى : قومٌ قد حملونا بغير نَوْل عمدتَ إلى إلى سفينتهم فخرقتها « لتغرق أهلها لقد جئتَ شيئاً إمْراً » وقال رسول الله (ﷺ) : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمي وعلمكَ من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى « أقتلتَ نفساً زَكيَّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكْراً » قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً » قال سفيانُ : وهذه أشدُّ من الأولى « قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لَدُنيَ عذراً » فانطلقا « حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ » فقال الخضر بيده هكذا – أي أشار بيده – فأقامه فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا « لو شئتَ لاتخذت عليه أجراً » قال الخضر : « هذا فِراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً » قال رسول الله (ﷺ) : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما » ! ! أخرجه الشيخان .

تنبـــيه

قال العلامة القرطبي : كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزَّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهي ليست بنبية ، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة

Marfat.com

الجدار » ا. هـ القرطبي ٢٨/١١ .

قال تعالى ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين .. إلى فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾

« من آية رقم ٨٣ إلى آية ١١٠ آخر السورة الكريمة »

● ● ● ●

المناسبة

لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغرب ، والشرق ، وإلى السَّدين ، وبناؤه للسدّ في وجه يأجوج ومأجوج ، وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة .

اللغة

﴿ ذو القرنين﴾ هو الاسكندر المقدوني وهو مَلِكٌ صالح أعطي العلم والحكمة ، سمي بذي القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً قال الشاعر :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً : مِلكاً علا في الأرض غير مفنَّد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي : أسباب مُلْكٍ من كريمٍ سيد [1]

﴿ حمئة﴾ كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿ سداً﴾ السدُّ : الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿ رَدْماً﴾ الرَّدْم : السدُّ المنيع وهو أكبر من السدّ لأن الرَّدم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم الحاجز الحصين المتين ﴿ زُبَر الحديد﴾ قطع الحديد مفرده زُبرة وهي

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٦٤/٢١ .

Marfat.com

القطعة ﴿الصدفين﴾ جانبا الجبل قال أبو عبيدة : الصَّدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قِطْراً﴾ القِطْر : النحاس المذاب ﴿نَقْباً﴾ خَرْقاً وثَقْباً ﴿دكاء﴾ مدكوكاً مسوَّى بالأرض قال الأزهري : دككته أي دققته ﴿يموج﴾ يختلط ويضطرب ﴿الفردوس﴾ قال الفراء : البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب : كل بستان يحوَّط عليه فهو فردوس [1]

النّـــزول

ا – قال قتادة : إن اليهود سألوا النبي (ﷺ) عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿ويسألونك عن ذي القرنين ..﴾ الآية [2] .

ب – قال مجاهد : جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال يا رسول الله : إني أتصدّق ، وأصلُ الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيُذكر ذلك مني وأُحمد عليه فيسرني ذلك وأُعجب به ، فسكت رسول الله (ﷺ) ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [3] .

التفســـــير

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه ؟ وما قصته ؟ ﴿ قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآناً ووحياً ﴿إنّا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سبباً﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف **قال المفسرون** : ذو القرنين هو « الاسكندر

---

(١) البحر ٦/١٥٧ .

(٢) أسباب النزول ١٧٢ .

(٣) القرطبي ١١/٧٠ .

Marfat.com

اليوناني » مَلَك المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين ، وكان مِلكاً مؤمناً مكنَّ الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فنمرود وبختنصر [1] ﴿فأَتْبَعَ سبباً﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي وصل المغرب ﴿وجدها تغرب في عينٍ حَمِئَة﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض **قال الرازي** : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشطَّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر [2] ﴿ووجد عندها قوماً﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿قلنا يا ذا القرنين إمّا أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام : إمّا أن تقتلهم ، أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان **قال المفسرون** ؛ كانوا كفاراً فخيَّره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام فيُحْسن إليهم ﴿قال أمّا من ظلم فسَوفَ نعذِّبُه﴾ أي من أصرَّ على الكفر فسوف نقتله ﴿ثم يُردُّ إلى ربه فيعذّبُه عذاباً نُكْراً﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم ﴿وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى﴾ أي وأمّا من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدَّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعَّم فيها ﴿وسنقول له من أَمْرنا يُسْراً﴾ أي نيّسر عليه في الدنيا فلا نكلّفه . بما هو شاق بل

---

(١) البحر ٦/١٥٧ .

(٢) التفسير الكبير ٢١/١٦٦ .

Marfat.com

بالسهل الميسَّر اختار الملك العادل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة ، والمعاملة الطيبة ، والمعونة والتيسير ، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ثم أتبع سَبَباً﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿حتى إذا بلغ مَطْلِعَ الشمس﴾ أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿وجدها تطْلُع على قومٍ لم نجْعل لهم من دونها سِتراً﴾ أي وجد الشمس تشرقُ على أقوامٍ ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض ، وإذا غربتْ خرجوا لمكاسبهم **قال قتادة** : مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلاّ من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراةً ، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم ، وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج [1] ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبْراً﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقَد أحطنا علماً بأحواله وأخباره ، وعتاده وجنوده ، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حتى إذا بلغ بين السَّدَيْن﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين . بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان **قال الطبري** : والسَّدُ : الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سُدَّ ما بينهما ، فرَدَم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم [2] ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي

---

(١) زاد المسير ١٨٧/٥ والطبري ١٤/١٦ .

(٢) الطبري ١٥/١٦ .

Marfat.com

وجد من وراء السدين قوماً متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعُسْر **قال المفسرون** : إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم ، وبطء فهمهم ، وبعدهم عن مخالطة غيرهم ، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ أي قال القوم لذي القرنين : إن يأجوج ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خَلْقهم تشويهٌ ، منهم مفرطٌ في الطول ، ومنهم مفرطٌ في القِصرَ [1] - قومٌ مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر **قال المفسرون** : كانوا من أَكَلة لحوم البشر ، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فهل نجعل لك خَرْجاً﴾ أي هل نفرض لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي لتجعل سداً يحمينا من شر يأجوج ومأجوج **قال في البحر** : هذا استدعاءٌ منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب [2] ﴿ قال ما مكّني فيه ربي خيرٌ﴾ أي ما بسطه الله عليَّ من القُدرة والمُلْك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿ فأعينوني بقوة﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿ اجعلْ بينكمْ وبينهم رَدْماً﴾ أي اجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوَّع ببناء السدّ واكتفى بعون الرجال ﴿ آتوني زُبَر الحديد﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان ﴿ حتى إذا ساوى بين الصَّدَفيْن﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبيْ الجبلين ﴿ قال انفخوا﴾ أي انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿ حتى إذا جعله ناراً﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿ قال آتوني أُفْرِغْ عليه قِطْراً﴾ أي أعطوني أصبُّ عليه النحاس المذاب **قال الرازي** : لما أتوه بقطع الحديد

---

(١) روى ذلك عن علي وابن عباس .

(٢) البحر ٦/١٦٤ .

Marfat.com

وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً [1] ﴿فما اسْطَاعوا أن يَظْهروه﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوِّه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نَقْباً﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته ، وبهذا السدِّ المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قال هذا رحمةٌ من ربي﴾ أي قال ذو القرنين : هذا السدّ نعمةٌ من الله ورحمة على عباده ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جعله دكاء﴾ أي جعله الله مستوياً بالأرض وعاد متهدماً كأنْ لم يكن بالأمس ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لا محالة .. وههنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض لكثرتهم واضطراب موج البحر ﴿ونُفِخَ في الصورِ فجمعناهم جمعاً﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحدٍ جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وعرضنا جهنم يومئذٍ للكافرين عرضاً﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضاً مخيفاً مفزعاً ﴿الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم **قال أبو السعود** : وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية ،

---

(١) التفسير الكبير ٢١/١٧٢ .

Marfat.com

وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عميٌ صم [1] ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أفظنَّ الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح بن مريم وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي ؟ **قال القرطبي** : جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم أو لا أعاقبهم [2] ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلاً﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافةً لهم كالنُزُل المعدِّ للضيف **قال البيضاوي** : وفيه تهكمٌ بهم وتنبيهٌ على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه [3] ﴿قل هل نبئكم بالآخرين أعمالاً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله ؟ ﴿الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة **قال الضحاك** : هم القسّيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ أي يظنون أنهم محسنون بأفعالهم ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي ليس لهم عند الله قيمةٌ ولا وزن ، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث « يُؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة » [4] ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هُزُواً﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله وعملوا

---

(١) أبو السعود ٣/٢٦٧ .

(٢) القرطبي ١١/٦٥ .

(٣) البيضاوي ٢/١٣ .

(٤) ذكره الحافظ في الفتح ٨/٣٢٤ .

Marfat.com

بما يرضيه ﴿كانت لهم جنات الفِردوس نُزُلاً﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلاً﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة :

في جنانِ الفِرْدوسِ ليسَ يخافون : خُروجاً عنها ولا تَحويلاً

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ هذا تمثيلٌ لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحِكمه وعجائبه ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ أي لفَنِيَ ماءُ البحر على كثرته وانتهى ، وكلامُ الله لا ينفد لأنه غير متناهٍ كعلمه جل وعلا ﴿ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوْحَى إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي فمن كان يرجو ثوب الله ويخاف عقابه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يرائي بعمله ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله ، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

البَلاَغَة

تضمنت الآياتُ الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :
١ – الطباق بين ﴿مطلع .. ومغرب﴾ ٢ – التشبيه البليغ ﴿جعله ناراً﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً ٣ – الاستعارة ﴿يموج في بعض﴾ شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ٤ – الاستعارة أيضاً ﴿كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكرى﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتُعرض عليهم الآيات الكونية فلا

Marfat.com

ينظرون ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو بطريق الاستعارة ٥ - الجناس الناقص ﴿ يحسبون أنهم يُحْسنون﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف ويسمى أيضا جناس التصحيف ٧ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿ أفحسب الذين كفروا﴾ ٨ - المقابلة اللطيفة ﴿ وأما مَنْ آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى﴾ مقابل ﴿ أمّا من ظلم فسوف نعذبه ..) الآية .

فائِـدَة

كثيراً ما يرد في القرآن لفظ « حبط » واصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً ساماً من الكلأ ثم تلقى حتفها ، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »

• • •

Marfat.com

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَتِسْعُونَ

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

● **عرضت** السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئه بقصة نبي الله زكريا وولده يحي الذي وُهبه على الكبر من امرأةٍ عاقر لا تلد ، ولكنَّ الله قادرٌ على كل شيء ، يسمع دعاء المكروب ، ويستجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه .

● **وعرضت** السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة مريم العذراء ، وإنجابها لطفلٍ من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

● **وتحدثت** كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : « اسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوح » وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدفُ من ذلك إثبات « وحدة الرسالة » وأن الرسل جميعاً جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك والأوثان .

● **وتحدثت** السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم

Marfat.com

الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقوداً لها

● **وختمت** السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد والشريك النظير ، وردَّت على ضلالات المشركين .

التسمية : سميت « سورة مريم » تخليداً لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسانٍ بلا أب ، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام . **قال تعالى** ﴿كهيعص . ذكرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا ... إلى نرثُ الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾

« من آية « ١ » إلى آية « ٤٠ » »

● ● ●

اللغـــــة

﴿وهَنَ﴾ ضعف يقال وَهَن يَهِنُ فهو واهِنٌ والوهنُ ضعفُ القوة ﴿اشتعل﴾ الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عاقراً﴾ العاقر : التي لا تلد لكبر سنها ﴿عِتياً﴾ العِتيُّ : النهاية في الكِبَر واليبس والجفاف يقال : عتا الشيخ كبر وولّى قال الشاعر :

إنما يُعذر الوليدُ ولا يُعْذَرُ مَنْ كانَ في الزَّمانِ عِتِيَّاً (١)

﴿حناناً﴾ الحَنَانُ : الشفقةُ والرحمةُ والمحبةُ ، وأصله من حنين الناقة على ولدها وحنانَيْك : تثنية الحنان **قال أبو عُبَيْدة** : والعرب تقول حنانك يا رب وحنانيك تريد رحمتك قال طرفة

أَبَا منذر أفنيتَ فاسْتَبْق بعضَنَا حنَانَيْك بعضُ الشر أهونُ من بعض (٢)

---

(١) القرطبي ٨٣/١١ .

(٢) البحر ١٧٧/٦ .

Marfat.com

﴿ انبتذت﴾ ابتعدتْ وتنحَّتْ ﴿سَوياً﴾ مستوي الخِلْقة ﴿المخاض﴾ اشتداد وجع الدلالة والطلق ﴿سَرِياً﴾ السريُّ : النهر والجدول لأن الماء يسري فيه ﴿فَرِيّاً﴾ الفَرِيُّ : العظيم من الأمر .

التفسير

﴿كهيعص﴾ حروفٌ مقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن [1] وتقرأ : «كافْ ، هَا ، يَا ، عَيْنْ ، صَادْ» ﴿ذكرُ رحمةِ ربِّكَ عَبْدَه زكريا﴾ أي هذا ذكرُ رحمةِ ربِّكَ لعبدِه زكريا نقصه عليك يا محمد ﴿اذ نادى ربه نداءً خفياً﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوتٍ خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون : لإن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء ﴿قال ربِّ إني وَهَنَ العظم مني﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب : لقد ضعف عظمي وذهبتْ قوتي من الكِبَرِ ﴿واشْتَعلَ الرأسُ شَيباً﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿ولم أكنْ بدعائكَ ربِّ شقياً﴾ أي لم يخيّب دعائي في وقت من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى **قال البيضاوي** : هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة ، وأنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حقّ الكريم أن لا يخيِّب من أطمعه [2] ﴿وإني خِفتُ الموالِيَ من ورائي﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يُحْسنوا وراثة العلم والنبوة ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلدْ قطُّ ﴿فهبْ لي من لدنك ولياً﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني ﴿يرثني ويرث

---

(١) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة .
(٢) البيضاوي ١٤/٢ .

Marfat.com

من آلِ يعقوب﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة **قال البيضاوي** : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورّثون المالَ [1] ﴿واجعلْه ربِّ رضيّاً﴾ أي اجعله يا رب مرضياً عندك **قال الرازي** : قدَّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة : **أحدها** : كونه ضعيفاً **والثاني** : أن اللهَ ما ردَّ دعاءَه البتة **والثالث** : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرَّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة [2] ﴿يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ أي نبشّرك بواسطة الملائكة بغلامٍ يسمى يحيى كما في آل عمران « فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى » ﴿لم نجعلْ له من قبلُ سمياً﴾ أي لم يسمَّ أحدٌ قبله بيحيى فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه **وقال مجاهد** : ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قال ربِّ انىَّ يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السنّ لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز ! ! ﴿وقد بلغتُ من الكبر عِتياً﴾ أي بلغتُ في الكبر والشيخوخة نهاية العمر **قال المفسرون** : كان قد بلغ مائةً وعشرين سنة ، وامرأتُه ثمانٍ وتسعين سنة ، فأراد أن يطمئنَّ ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام ﴿قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيّنٌ﴾ أي قال الله لزكريا : هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين ، وخلُقه وإيجادُه سهلٌ يسيرٌ عليَّ ﴿وقد خلقتك مِن قبلُ ولم تك شيئاً﴾ أي كما خلقتُك من العدم ولم تكُ شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق

---

(١) البيضاوي ١٤/٢ .

(٢) التفسير الكبير ١٨١/٢١ .

Marfat.com

بحيى منكما **قال المفسرون** : ليس في الخلق هيّن وصعبٌ على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدةٌ «كنْ فيكون» وإنما هو أهونُ في اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قال ربِّ اجعلْ لي آية﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قال آيتُك ألاّ تكلّم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويٌّ الخَلْق ليس بك خرسٌ ولا علة **قال ابن عباس** : اعتقل لسانه من غير مرض **وقال ابن زيد** : حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلّم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة والإنجيل فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم [1] ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي أشرف عليهم من المصلّى وهو بتلك الصفة ﴿فأوحى إليهم أنْ سبّحوا بكرة وأصيلاً﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره ، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيامٍ إلا رمزاً» ﴿يايحيى خذ الكتاب بقوة﴾ في الكلام حذفٌ ولتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السنَّ الذي يؤمر فيه قال الله له : يا يحيى خذ التوراة بجدٍ واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر ، روي أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعبْ فقال لهم : ما للّعبِ خُلقت ، وقيل : أعطي النبوةَ منذ الصغر والأول أظهر **قال الطبري** : المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سنَّ الرجال [2] ﴿وحَنَاناً من لدنَّا وزكاةً﴾ أي فعلنا ذلك رحمةً منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكيةً له من الخصال الذميمة ﴿وكان تقياً﴾ أي عبداً صالحاً

---

(١) الطبري ١٦/٥٢ .

(٢) الطبري ١٦/٥٥ .

Marfat.com

متقياً لله ، لم يهمَّ بمعصيةٍ قط **قال ابن عباس** : طاهراً لم يعمل بذنب ﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وسلامٌ عليه يومُ ولد ويوم يموتُ ويوم يُبعثُ حياً﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه ، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره **قال ابن عطية** : حيَّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله [1] (واذكرْ في الكتاب مريم﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة « ميلاد يحيى لأنها ولادة عذراء من غير بعل ، وهي أغرب من ولادة عاقرٍ من بعلها الكبير في السنّ والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إذْ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي حين تنحَّتْ واعتزلت أهلها في مكان شرقيَّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فاتخذتْ من دونهم حجاباً﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ أي تصوَّر لها في صورة البشر التام الخلقة **قال ابن عباس** : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جَعْد الشعر مستوي الخلقة [2] **قال المفسرون** : إنما تمثّل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ولم تقدر على السماع لكلامه ، ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن [3] ﴿قالت إني أعوذُ بالرحمنِ منك إن كنتَ تقياً﴾ أي فلمّا رأته فزعت وخشيتْ أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت إني أحتمي والتجىء إلى الله منك ،

---

(١) القرطبي ٨٨/١١ .

(٢) زاد المسير ٢١٧/٥ .

(٣) البحر ١٨٠/٦ .

Marfat.com

وجواب الشرط محذوفٌ تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني ﴿قال إنما أنا رسولُ ربِّك لأهبَ لكِ غلاماً زكياً﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف : ما أنا إلا مَلَكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهبَ لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قالت أنَّى يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وعلى أيّ صفةٍ يوجد هذا الغلام مني ؟ ﴿ولم يمسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ أي ولستُ بذاتِ زوج حتى يأتيني ولد ولستُ بزانية ﴿قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيّن﴾ أي كذلِك الأمر حكم ربُّك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج ، فإنَّ ذلِك على الله سهل يسير ﴿ولنجعله آية للناس ورحمةً منا﴾ أي وليكون مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون بإرشاده ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغيّر ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي ﴿فحملته فانتبذتْ به مكاناً قصياً﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء **قال المفسرون** : إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت - وهو في بطنها - مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيّروها بالولادة من غير زوج ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فألجأها ألم الطَّلق وشدة الولادة إلى ساق نخلةٍ يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نَسْياً منسياً﴾ أي قالت يا ليتني كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر [1] **قال ابن كثير** : عرفتْ أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها ، وبعدما كانت عندهم عابدةً ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت [2]

---

(١) هذا قول قتادة وقال ابن عباس « وكنت نسياً منسياً » أي لم أُخلق ولم أك شيئاً .

(٢) مختصر ابن كثير ٢/٤٤٨ .

Marfat.com

﴿ فناداها مِنْ تَحتِها ألاَّ تحزَني﴾ أي فناداها المَلَك من تحت النخلة قائلاً لها : لا تحزني لهذا الأمر ﴿ قد جعل ربُّكِ تحتَكِ سَرِيّاً﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً يجري أمامك **قال ابن عباس** : ضرب جبريل برجله الأرض فظهرتْ عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿ تُساقطْ عليك رُطَباً جنياً﴾ أي يتساقط عليك الرُّطَب الشهيُّ الطريُّ **قال المفسرون** : أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء مَوَات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً ، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامةً من الله لها ﴿ فكلي واشربي﴾ أي كلي من هذه الرُطب الشهي ، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل ﴿ وقَرّي عيناً﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿ فإمّا ترينَّ من البشر أحداً﴾ أي فإن رأيتِ أحداً من الناس وسألكِ عن شأن المولود ﴿ فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً﴾ أي نذرت السكوتَ والصمت لله تعالى ﴿ فلن أكلّم اليوم إنسياً﴾ أي لن أكلّم أحداً من الناس .. أُمِرَتْ بالكفّ عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿ فأَتَتْ به قومَها تحمُله﴾ أي أتتْ قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿ قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فَرِياً﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها : لقد جئتِ شيئاً عظيماً مُنْكراً ﴿ يا أخت هارونَ ما كان أبوك امرء سَوْء﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿ وما كانت أُمّكِ بغياً﴾ أي وما كانت أمكِ زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيتٍ طاهر معروفٍ بالصلاح والعبادة ؟ **قال قتادة** : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها [1] به ، وليس بهارون أخي

---

(١) الطبري ١٦/٧٧ .

Marfat.com

موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام **وقال السهيلي** : هارون رجل من عُبّاد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهراً طويلاً [1] ﴿ فأشارت إليه﴾ أي لم تجبهم وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿ قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً﴾ أي قالوا متعجبين : كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلَبَان أمه ؟ **قال الرازي** : روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان [2] ﴿ قال إني عبدُ الله﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم : أنا عبدٌ لله خلقني بقدرته من دون أب ، قدّم ذكر العبودية ليُبْطل قول من اَدّعَى فيه الربوبية ﴿ آتاني الكتابَ وجعلني نبياً﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أزلاً لا بدَّ إلا أن يقع ﴿ وجعلني مباركاً أين ما كنتُ﴾ أي جعل فيَّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿ وبراً بوالدتي﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي محسناً لها ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني متعظماً متكبراً على أحد شقياً في حياتي ﴿ والسلام عليَّ يومُ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حياً﴾ أي سلام الله عليَّ في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حياً من قبري ، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد .. وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما عبدٌ ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٤٥٠ .

(٢) التفسير الكبير ٢١/٢٠٨ .

Marfat.com

الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ ذلك عيسىَ بن مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيه يمترون﴾ أي ذلك هو القول الحقُّ في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكّون في أمره ويمترون ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿ سبحانه﴾ أي تنزَّه الله عن الولد والشريك ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كنْ فكان ، ولا يحتاج إلى معاناةٍ أو تعب ، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ **قال المفسرون** : وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال : إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء ، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء « كن فيكون » فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله « كنْ » لا يسمى ابناً له بل هو عبده ، فهو تبكيتٌ وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿ وإنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم﴾ أي وممّا أَمَرَ به عيسى قومَه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلفت الفِرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم من يزعم انه ابن الله ، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿ فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿ اسمعْ بهم وأبصرْ يومَ يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لكنِ الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ أي لكنْ الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلائق وخوّفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحس ، والمقصِر إذ لم يزدَدْ من الخير ﴿ إذْ قُضي الأمر﴾ أي قُضيَ أمرُ الله في الناس ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴿ وهم في غفلة﴾ أي وهم اليوم

Marfat.com

في غفلةٍ سادرون ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿وإلينا يُرجعون﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :
١ – الكناية ﴿وهن العظم مني﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم
٢ – الاستعارة ﴿اشتعل الرأس شيباً﴾ شبّه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية ٣ – الطباق بين ﴿ولد .. ويموت﴾ ٤ – جناس الاشتقاق ﴿نادى .. نداءً﴾ ٥ – الكناية اللطيفة ﴿ولم يَمسْني بشر﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع ٦ – صيغة التعجب ﴿أسمعْ .. وأَبْصرْ﴾ ٧ – السجع ﴿سريّاً ، بغياً ، صبياً ، نبياً﴾ وهو من المحسنات البديعة .

تنبيه

في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممَّحض للحسرة لا شيء فيه سواها ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال : « إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أَهل الجنة : هل تعرفون هذا فيشرئبون – أي يمدون أعناقهم – وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت

Marfat.com

ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة ...﴾ الآية . **قال تعالى** ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً ... إلى قوله هل تعلم له سمياً﴾ « من آية « ٤١ » إلى آية « ٦٥ » »

• • •

المناسبة

لما ذكر تعالى قصة مريم واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله ، أعقبها بذكر قصة إبراهيم وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن توحيد الربّ الديان ، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً ، فالنصارى عبدوا المسيح ، ومشركوا العرب عبدوا الأوثان .

اللغة

﴿صدّيقاً﴾ من أبنية المبالغة ومعناه كثير الصدق ﴿مَلِياً﴾ دهراً طويلاً من قولهم أمليتُ لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشاعر :

فتصدَّعتْ شُمُّ الجبال لموته : وبَلتْ عليه المُرْ مِلاَتُ مَلِيّاً (١)

﴿حفياً﴾ الحفِيُّ : المبالغ في البَّر واللطف يقال : حفي به حفاوة إذا بالغ في إكرامه واللطف به ﴿خَلْفٌ﴾ الخلفُ : بسكون اللام الذي يخلف سلفه بالشر وبفتحها الذي يخلفه بالخير يقال جعلك الله خير خَلَف لخير سلف وقال الشاعر :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم : وبقيت ُ في خَلْف كجلد الأجرب (٢)

﴿غياً﴾ : شراً وضلالاً قال أهل اللغة : كل شر عند العرب فهو

---

(١) البحر ١٩٥/٦ .

(٢) البيت للبيد كذا في الرازي ٢٣٥/٢١ .

Marfat.com

غي ، وكل خير فهو رشاد . **النزول** : عن ابن عباس قال قال رسول الله (ﷺ): يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا ؟ فنزلت الآية ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك .. ﴾ الآية [1] .

التفسير

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم ﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام ﴿ إنه كان صدّيقاً نبياً ﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه ، جامعاً بين الصدّيقية والنبوة ، **والغرض** تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿ إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنك شيئاً ﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابه ، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ، يا أبتِ لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضراً ؟ ﴿ يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ﴾ كرَّر النصح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفّق وتلَّطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿ فاتبعْني أهدك صراطاً سَوِياً ﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دينُ الله الذي لا عوج فيه ﴿ يا أبتِ لا تعبد الشيطان ﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عَصِياً ﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن ، مستكبر على عبادة ربه ، فمن أطاعه أغواه ، **قال القرطبي** : وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده [2] ﴿ يا أبتِ إني أخافَ أن يَمَسَّكَ عذاب من الرحمن فتكون

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) القرطبي ١١/١١١ .

Marfat.com

للشيطان ولياً﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة والمعنى أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران **قال الإمام الفخر** : وإيراد الكلام بلفظ « يا أبتِ » في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب ، وإرشاده إلى الصواب ، وقد رتَّب ابراهيم الكلام في غاية الحسن ، لأنه نبَّهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان ، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى ، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق ، وقوله « إني أخاف » دليلٌ على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوَّة [1] ﴿ قال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم﴾ أي قال له أبوه آزر : أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرفٌ عنها ؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل **قال البيضاوي** : قابل ابوه استعطافَه ولطفَه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله « يا أبتِ » بـ « يا ابني » وقدَّم الخبر وصدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل [2] ، ثم هدَّده بقوله ﴿ لئن لم تنتهِ لأرجمنَّكَ﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيبَ آلهتي لأرجمنك بالحجارة ﴿ واهجرني ملياً﴾ أي اهجرني دهراً طويلاً **قال السديُّ** : أبداً .. بهذه الجهالة تلَّقى « آزر » الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القولَ المؤدَّبَ المهذَّب ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذي هذَّبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿ قال سلامٌ عليكَ سأستغفر لكَ ربي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه : أمَّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك

---

(١) التفسير الكبير ٢٢٦/٢١ .

(٢) البيضاوي ١٧/٢ .

Marfat.com

بعدُ ما يؤذيك لحرمة الأُبوَّة ، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك ﴿ إنه كان بي حفياً﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿ وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة ﴿ عسى ألاَ أكون بدعاء ربي شقياً﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألاَّ يجعلني شقياً ، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتهم .. وهكذا اعتزل ابراهيم أباه وقومه وعبادَتهم للأوثان ، وهجر الأهل والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهبَ له ذريةً وعوَّضه خيراً ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب﴾ **قال المفسرون** : لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام ، واعتزل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خيرٌ منهم ، فوهب له إسحق ويعقوب أولاداً أنبياء ، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار ، ويعقوبُ ابن اسحق ، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل **قال ابن كثير** : المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء ، أقرَّ الله بهم عينه في حياته بالنبوة [1] ولهذا قال ﴿ وكلاً جعلنا نبياً﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ أي أعطينا الجميعَ - ابراهيم واسحق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي ، من المال والولد والعلم والعمل ﴿ وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأدْيان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ، ويُصَلّون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة ، **قال الطبري** : أي رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس [2] ﴿ واذكر في الكتاب موسى﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن

---

(١) المختصر ٢/٤٥٤ .

(٢) الطبري ١٦/٩٣ .

Marfat.com

العظيم خبر موسى الكليم ﴿إنه كان مُخْلَصاً﴾ أي استخلصه الله لنفسه ، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي من الرسل الكبار ، والأنبياء الأطهار ، جمع الله له بين الوصفين الجليلين ، وإنما أعاد لفظ «كان» لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿وقربناه نجياً﴾ أي أدْنيناه للمناجاة حين كلمناه **قال ابن عباس** : أُدني موسى من الملكوت ورُفعت له الحُجُب حتى سمع صريف الأقلام [1] **قال الزمخشري** : شبّهه بمن قربّه بعض العظماء للمناجاة حيث كلّمه بغير واسطة مَلَك ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارونَ نبياً﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلْناه نبياً إجابة لدعائه حين قال «واجعلْ لي وزيراً من أهلي . هارونَ أخي» جعلناه له عَضُداً وناصراً ومعيناً ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل﴾ اي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدّك «اسماعيل» الذبيح بن إبراهيم ، وهو أبو العرب جميعاً ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي كان صادقاً في وعده ، لا يعد بوعدٍ إلا وفّى به **قال المفسرون** : وذُكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً ، ولأنه عانَى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة **قال ابن كثير** : وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط . وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة [2] ، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد (ﷺ) ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي كان يحث أهله على طاعة الله ، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين ، والزكاة التي بها تتحقق

---

(١) البحر ٦/١٩٩ .

(٢) المختصر ٢/٤٥٦ .

Marfat.com

سعادة المجتمع ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ أي نال رضى الله قال الرازي : وهذا نهاية المدح لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات [1] ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، موحىً إليه من الله **قال المفسرون** : إدريس هو جدُّ نوح ، وأول مرسل بعد آدم ، وأول من خطَّ بالقلم ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله [2] ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّن﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام ، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم لله عليهم بشرف النبّوة ﴿من ذرية آدم﴾ أي من نسل آدم كإدريس ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿ومن ذرية إبراهيم﴾ كإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿وإسرائيل﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو « يعقوب » كموسى وهارون وزكريا ويحي وعيسى ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾ أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إذا تتلى عليهم آياتُ الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة ، وسمّوا النفس ، والزلفى من الله تعالى **قال القرطبي** : وفي الآية دلالة على أن لآياتِ الرحمن تأثيراً في القلوب [3] ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء ،

---

(١) الفخر الرازي ٢١/٢٣٢ .

(٢) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة .

(٣) القرطبي ١١/١٢٠ .

Marfat.com

تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي سوفْ يلقون كل شرٍّ وخسارٍ ودمار ، **قال ابن عباس** : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ بالله من حره [1] ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً﴾ أي فأولئك يُسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جناتِ عدنٍ التي وعد الرحمنُ عباده بالغيب﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصلٌ لا يُخلف ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام ، لكنْ يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام ، والاستثناء منقطع ﴿ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشياً﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا تنغصٍ ولا انقطاع ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وما نتنزّل إلا بأمر ربك﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترةً من الزمن والمعنى : ما نتنزّل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي للهِ جل وعلا جميع الأمر ، أمر الدنيا والآخرة ، وهو المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه ؟ ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما فاعبدْه﴾ أي هو ربُّ العوالم علويّها وسفليّها فاعبده وحده ﴿واصطبِرْ لعبادته﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هل تعلم له سمياً﴾ اي هل تعلم له شبيهاً

(١) القرطبي ١١/١٢٥ .

Marfat.com

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي : ١ – الكناية اللطيفة ﴿ وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً ﴾ كنَّى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان لأن الثناء يكون باللسان فلذلك قال « لسان صدق » كما يكنى عن العطاء باليد ٢ – الاستعارة ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ شبَّه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة ٣ – المبالغة ﴿ صدّيقاً نبياً ﴾ أي مبالغاً في الصدق ٤ – الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة ﴿ أولئك الذين أنعم ﴾ فما فيه من معنى البعد للإشادة بعلو رتبهم وبُعْدِ منزلتهم في الفضل ٥ – الجناس الناقص ﴿ خَلَف من بعدهم خَلْفٌ ﴾ لتغير الحركات والشكل ٦ – السجع الحسن الرصين ﴿ علياً ، حفياً ، نبياً ﴾

فائدة

في قول إبراهيم عليه السلام « يا أبتِ » تلطفٌ واستدعاء ، والتاء عوضٌ عن ياء الإضافة لأن أصله « يا أبي » ولهذا لا يُجمع بينهما .

تنبيه

ذكر السيوطي في التحبير أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة ، وبينه وبين آدم ألفا سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء .

قال تعالى ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً ﴾ .. إلى ﴿ أو تسمع لهم ركزاً ﴾

من آية ٦٦ – الى أية ٩٨

آخر السورة

● ● ●

Marfat.com

المناسبة

لما ذكر تعالى طائفةً من قَصَص الأنبياء للعظة والاعتبار ، وكان الغرضُ الأساسيُ للسورة الكريمة إثباتُ قدرة الله على الإحياء والإفناء ، وإثباتُ يوم المعاد ، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء .

اللغـــــة

﴿جثيّاً﴾ جمع جاثٍ يقال : جثا إذا اقعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الذليل قال الكُمَيْت :

هُمُو تركوا سَرَاتَهُم جِثِيَّاً : وهم دُونَ السَّراةِ مقرَّنينا [1]

﴿عِتيَّاً﴾ عصياناً وتمرداً عن الحق ﴿نديّاً﴾ النديُّ والنادي : الذي يجتمع فيه القوم للتحدث والمشورة **قال الجوهري** : النديُّ مجلس القوم ومتحدثهم وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بنديّ [2] ﴿أثاثاً﴾ الأثاث : متاع البيت ﴿رِئياً﴾ منظراً حسناً ﴿تؤزهم﴾ الأزُّ : التهييجُ والإغراء ، قال أهل اللغة : الأزُ والهزُّ والاستفزاز متقاربة ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ومنه أزِيز المِرْجَل وهو غليانه وحركته ﴿وفداً﴾ جمع وافد وهو الذي يقدم على سبيل التكرمة معزَّزاً مكرَّماً ﴿وِرْداً﴾ مشاةً عطاشاً قال الرازي : والوِرْد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش [3] ﴿إدّاً﴾ منكراً عظيماً **قال الجوهري** : الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع ﴿ركزاً﴾ الركز : الصوت الخفي .

---

(١) القرطبي ١١/١٣٣ .

(٢) الصحاح للجوهري .

(٣) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ .

Marfat.com

النّـــزول

عن خباب بن الأَرَتّ قال : كنتُ رجلاً قيناً – أي حداداً – وكان لي على العاص بن وائل دينٌ فأتيتُه أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموتَ ثم تبعث – أي تموت الآن وتبعثَ أمامي وهذا من باب المستحيل – قال : فإني إذا مِتُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولد فأعطيتك فأنزل الله ﴿ أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً﴾ (١)

التفســـــير

﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُخرج حياً﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدِّق بالبعث بعد الموت على وجه الانكار والاستبعاد : أئذا متُّ وأصبحتُ تراباً ورفاتاً فسوف أُخرج من القبر حياً ؟ قال ابن كثير : يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته (٢) ، واللام « لسوف » للمبالغة في الإنكار ، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، أين كان ؟ وكيف كان ؟ ولو تذكّر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً﴾ أي أَوَلا يتذكر هذا المكذّب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإعادة ؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء ؟ **قال بعضُ العلماء** : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجةٍ في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذْ لا شكَّ أَنَّ الإعارة ثانياً أهونُ من الإيجاد أولاً (٣) ، ونظيره قوله « قل يُحييها الذي أنشأها

---

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ص ١٧٣ .
(٢) المختصر ٢/٤٦٠ .
(٣) الفخر الرازي ٢١/٢٤١ .

Marfat.com

أول مرة » ﴿فوربك لنحشرَنّهم والشياطينَ﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرنن هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم **قال المفسرون** : يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثم لنحضرنهم حول جهَنَّم جِثيّاً﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفزع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ثم لننزعنَّ من كل شيعة﴾ أي لنأخذنَّ ولننتزعنَّ من كل فرقةٍ وجماعة ارتبطت بمذهب ﴿أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتياً﴾ أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً ، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى **قال ابن مسعود** : يُبدأ بالأكابر فالأكابر جُرماً ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلِيّاً﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرها وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبدأ بهم ﴿وإنْ منكم إلاّ واردها﴾ أي ما منكم أحدٌ من برٍ أو فاجر ألاّ وسيرد على النار ، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أي كان ذلك الورود [1] قضاءً لازماً لا يمكن خُلْفُه ﴿ثم نُنَجّي الذين اتَّقَوْا﴾ أي ننجّي من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿ونذر الظالمين فيها جثيّاً﴾ أي ونترك الظالمين في جهنم قعوداً على الركب **قال البيضاوي** : والآية دليلٌ على أن المراد بالورود الجثوُّ حواليها ، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم [2] ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، واضحات

---

(١) **اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس** : الورود الدخول ، لا يبقى برٌ **ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقال ابن مسعود وقتادة** : الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط . ولعل هذا القول أصح أجارنا الله من جهنم .

(٢) البيضاوي ١٩/٢ .

Marfat.com

الإعجاز ، بينات المعاني ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَديّاً﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أيُّ الفريقين : نحن أو أنتم أحسنُ مسكناً ، وأطيب عيشاً ، وأكرم منتدى ومَجْلساً ؟ **قال البيضاوي** : إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لَهُم من حظوظ الدنيا ، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم [1] ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿ وكم أهلكنا قبلَهم من من قرن هم أحسنُ أثاثاً ورِئياً﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً ، وأجمل صورةً ومنظراً ، فكما أهلكنا السابقين نُهلك اللاحقين ، فلا يغترَّ هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿ قلْ من كان في الضلالة فليمدُدْ له الرحمن مدّاً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق : من كان في الضلالة مناومنكم فليمهلْه الرحمن فيما هو فيه ، وليدْعه في طغيانه ، حتى يلقي ربه وينقضي أجله **قال القرطبي** : وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد [2] ﴿ حتى إذا رَأَوْا ما يُوعدون﴾ أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من وعد الله ﴿ إمَّا العذاب وإمّا الساعة﴾ أي إمَّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأهوال ﴿ فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين شرٌّ منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصاراً ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا في مقابلة قولهم « خيرٌ مقاماً وأحسن نديّاً » ﴿ ويزيد اللهُ الذين اهتدوا هُدَىً﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين ، بصيرةً وإيماناً وهداية ﴿ والباقيات

---

(١) البيضاوي ٢/٢٠ .

(٢) القرطبي ١١/١٤٤ .

Marfat.com

الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿وخيرٌ مرَدّاً﴾ أي وخير رجوعاً وعاقبة ، فإن نعم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ نزلت في العاص بن وائل [1] ، والاستفهام للتعجب أي تعَّجبْ يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿اطَّلَعَ الغيبَ﴾ أي هل اطَّلَع على الغيب الذي تفرَّد به علاّم الغيوب ؟ ﴿أم اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟ ﴿كلاّ سنكتب ما يقول﴾ ردٌّ عليه ، ولفظةُ «كلاّ» للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعَة فسنكتب ما يقول عليه ﴿ونَمدُّ له من العذاب مدّاً﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه ، ونضاعف له مدَد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾ أي ونرثه ما يخلّفه من المال والولد بعد إهلاكه ، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزّاً﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العِزَّ والشَّرف ﴿كلاّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تَؤُزُّهم﴾ أي ألم تر يا محمد أنَّا سلَّطنا الشياطين على الكافرين تُغريهم إغراءً بالشر ، وتهيّجُهم تهيجاً حتى يركبوا المعاصي **قال الرازي** : أي تغريهم على المعاصي وتحثُّهم وتهيّجُهم لها بالوساوس والتسويلات [2] ﴿فلا تعجلْ

---

(١) انظر سبب النزول المتقدم .

(٢) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ .

Marfat.com

عليهم إنما نَعُدُّ لهم عَدّاً﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدُّها عليهم عدّاً ثم يصيرون إلى عذاب شديد **قال ابن عباس** : نعدُّ أنفاسهم في الدنيا كما نَعدُّ عليهم سنِّيهم [1] ﴿يوم نحشرُ المتقينَ إلى الرحمن وَفْداً﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزَّزين مكرَّمين ، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْداً﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم نَعَم عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث « يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتُحرُّ بقيَّتهم إلى النار ، تقيلُ معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا [2] » ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي لا يشفعون ولا يُشفع لهم ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من تحلَّى بالإيمان والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة **قال ابن عباس** : العهدُ « شهادة أن لا إله إلا الله » ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾ أي لقد أتيتم أيها المشركون بقولٍ منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة ﴿تكاد السموات يتفطَّرن منه﴾ أي تكاد السموات تتشقَّق من هول هذا القول ﴿وتنشقُّ الأرض وتخِرُّ الجبالُ هدّاً﴾ أي وتنشقُّ كذلك الأرض وتندَّك الجبال وتُهدُّ هدّاً استعظاماً للكلمة الشنيعة ﴿أَنْ دَعَوْا للرحمن ولداً﴾ أي هذه الانتفاضة الكونية التي تهتز لها السموات والأرض والجبال لأَنْ دعوا للرحمن ولداً ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة ، وهو

---

(١) القرطبي ١١/١٥٠ .

(٢) أخرجه الشيخال .

Marfat.com

المنزَّه عن الشبيه والنظير ، والغني عن المعين والنصير ﴿إنْ كلُّ منْ في السمواتِ والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ أي ما منْ مخلوقٍ في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبدٌ للهِ ، دليلٌ خاضعٌ بين يديه ، منقادٌ مطيع له كما يفعل العبيد ﴿لقد أحصاهم وعدَّهم عَدّاً﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وكُلُّهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ أي وكل فردٍ يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً ، بلا مالٍ ولا نصير ، ولا معين ولا خفير ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة قال الربيع : يحبُّهم ويحببهم إلى الناس ﴿فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتُنْذِرَ به قوماً لُدّاً﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه ، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره ، لتبشّر به المؤمنين المتقين ، وتخوِّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وكم أهلكنا قبلَهم من قرن﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، و «كم» للتكثير ﴿هل تُحسُّ منهم من أحد﴾ أي هل ترى منهم أحداً ؟ ﴿أو تسمع لهم رِكزاً﴾ أي أو تسمع لهم صوتاً خفياً ؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار ، وأوحشت منهم المنازل ، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي : ١ - ذكر العام وإرادة الخاص ﴿ويقول الإنسان﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث ٢ - الطباق بين ﴿متُّ .. وحيّاً﴾ وبين ﴿تبشّر .. وتنذر﴾ ٣ - الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أوَ لا يذكر الإنسان﴾ ٤ - المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يوم نحشر

Marfat.com

المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْداً﴾ ٥ – الجناس غير التام ﴿وفداً .. ورداً﴾ لتغير الحرف الثاني ٦ – اللف والنشر المرتب في ﴿شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خيرٌ مقاماً﴾ والثاني إلى ﴿وأحسنُ نديّاً﴾ كما يوجد بين ﴿خيرٌ .. وشرٌّ﴾ طباق ٧ – المجاز العقلي ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه ٨ – السجع الرصين ﴿عبداً . عدّاً ، فرداً ، وُدّاً﴾ .

تنبيه

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إني أحبُ فلاناً فأَحبَّه فيحبُّه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبّوه فيحبه أهل السماء .. » الحديث وهو مصداق قوله تعالى « سيجعل لهم الرحمن وُدّاً »

فائدة

روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فلا تعجل عليهم إنما نَعدُّ لهم عداً﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مَدَد ، فما أسرع ما تنفد قال الشاعر : حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما : مضى نَفَس منك انتقصت به جزءا . « تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم » .

Marfat.com

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

بَيْنَ يَدَي السّورة

سورة يسن مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي : الإيمان بالبعث والنشور ، وقصة أهل القرية ، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين »

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي ، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش ، الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكذَّبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله ، فحقَّ عليهم عذاب الله وانتقامه . ● **ثم ساقت** قصة أهل القرية « إنطاكية » الذين كذبوا الرسل ، لتحذّر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار ● **وذكرت** موقف الداعية المؤمن « حبيب النجَّار » الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة ، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بالصيحة . ● **وتحدثت** السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون العجيب ، بدءاً من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة ، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار ، فإذا هو ظلامٌ دامسٌ ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلكٍ لا تتخطاه ، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله ، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا . ● **وتحدثت** عن القيامة وأهوالها ، وعن نفخة البعث والنشور ، التي يقوم الناس فيها من القبور ، وعن أهل الجنة وأهل النار ، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب ، حتى

Marfat.com

يستقر السعداء في روضات النعيم ، والأشقياء في دركات الجحيم .

● **وختمت** السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي ، وهو موضوع البعث والجزاء وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه

التسمية : سميت السورة « سورة يسن » لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها ، وفي الافتتاح بها إشارة إعجاز القرآن الكريم .

فضلها : قال ﷺ « إن لكل شيء قلباً وقلبُ القرآن يسن ، وددت أنها في قلب كل إنسانٍ من أمتي » أخرجه البذار .

قال الله تعالى ﴿ يسن . والقرآن الحكيم .. إلى وإن كلٌ لما جميعٌ لدينا محضرون﴾

من آية « ١ » إلى « ٣٢ »

● ● ●

اللغـــــــة

﴿ أغلالاً﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد ، وقد تشدُّ به اليد مع العنق ﴿ مقمحون﴾ رافعوا الرؤس مع غض البصر ، **قال أهل اللغة** : الإقماح : رفع الرأس وغض البصر يقال : أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب [1] ، قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جوانبهـــا قعـــودٌ : نغضُّ الطرف كالإبـل القِماح [2]

﴿ سَدّاً﴾ السَّدُ : الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿ فعززنا﴾ عزَّزه قوَّاه وشدَّ من أزره ﴿ تطيرنا﴾ تشاءمنا ، والتطير التشاؤم ، وأصله من الطير إذا طار إلى جهة اليسار تشاءموا به ﴿ خامدون﴾ ميتون لا حِراك بهم كما تخمد النار .

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة قمع

(٢) تفسير الطبري ٨/١٥ .

Marfat.com

التفسير

﴿يسن﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها ، ولكنَّ نظمه البديع المعجز آيةٌ على كونه من عند الله [1] **وقال ابن عباس** : معنى « يسن » يا إنسان في لغة طيء ، وقيل : هو اسم من أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده « إنك لمن المرسلين » وقيل معناه : يا سيد البشر قاله أبو بكر الوراق [2] ﴿والقرآنِ الحكيم﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن ، والحكيم معناه المحكم ، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل ، ولا يعتريه تناقض أو بطلان **قال القرطبي** : أُحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل [3] **وقال أبو السعود** : أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظُمه المعجُز ، المنطوي على بدائع الحكم [4] .. **والخلاصة** فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم ، المعجز في نظمه ، وبديع معانيه ، المتقن في تشريعه وأحكامه ، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة ، على أن محمداً رسولُه ، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه ﴿إنك لمن المرسلين﴾ جواب القسم أي إنك يا محمد لمن المرسلين من ربّ العالمين لهداية الخلق **قال ابن عباس** : قالت كفار قريش : لست يا محمد مرسلاً ، وما أرسلك الله إلينا ، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمداً من المرسلين [5] ﴿على صراط مستقيم﴾ أي على طريق ونهجٍ مستقيم ، لا انحراف فيه ولا اعوجاج ، هو الإسلام دين الرسل قبلك ، الذين جاءوا بالإيمان

---

(١) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل البقرة من هذا التفسير .

(٢) القرطبي ١٥/٤ .

(٣) تفسير القرطبي ١٥/٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٤ .

(٥) تفسير القرطبي ١٥/٥ وقد نقله القرطبي عن القشيري .

Marfat.com

والتوحيد **قال الطبري** : أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة [1] ، والتنكير للتفخيم والتعظيم [2] ﴿تنزيلَ العزيز الرحيم﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير ، تنزيلٌ من ربّ العزة جل وعلا ، العزيز في ملكه ، الرحيم بخلقه ﴿لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العرب ، الذين ما جاءهم رسولٌ ولاكتاب ، لتطاول زمن الفترة عليهم ، والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿فهم غافلون﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان ، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان .. ثم بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإصدارهم على الكفر والتكذيب فقال ﴿لقد حقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين ، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار ، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار ، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد .. ثم بيَّن تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾ تمثيلٌ وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جعل في يده غلٌّ وجمعت يده إلى عنقه ، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه **قال في الجلالين** : وهذا تمثيل والمراد أنهم لا يزعنون للإيمان ، ولا يخفضون رؤسهم له [3] **قال ابن كثير** : ومعنى الآية : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء ، كمن جُعل في عُنقه غلٌّ ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذَقَنه [4] ، فارتفع رأسه فصار مُقْمَحاً ، والمُقْمَح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين ، لأن

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٩٧ .

(٢) الانتصاف على الكشاف ٤/٢ .

(٣) تفسير الجلالين ٣/٣١٨ .

(٤) الذَّقن : مفرد الأذقان قال الطبري : والذقن مجمع اللحيين .

Marfat.com

الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق [1] **وقال أبو السعود** : مثَّل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم ﴿ فهي إلى الأذقان﴾ أي فالأغلال منتهيةٌ إلى أذقانهم ، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يُطأطئون رؤسهم ، غاضون أبصارهم ، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ ، أو ينظرون إلى جهته [2] ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدّاً﴾ **قال أبو السعود** : وهذا تتمةٌ للتمثيل وتكميلٌ له أي وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً ، ومن ورائهم سداً كذلك ﴿ فأغشيناهم فهم لا يُبصرون﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً ، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين ، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيّ والجهالات ، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات [3] ، **قال المفسرون** : وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإيمان عليهم ، بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده [4] ﴿وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنْذرهم﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمُه ، لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال ، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان ، لا تنفعه القوارع والزواجر ﴿ لا يؤمنون﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون ، لأنَّ الإنذار لا يخلق القلوب الميتة ، إنما يوقظ القلب الحيَّ المستعد لتلقي الإيمان ، وهذا تسلية له ﷺ وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان ﴿ إنما تُنْذِرُ من اتَّبَع الذكرَ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿ وخشيَ الرحمنَ بالغيب﴾ أي وخاف الله دون أن يراه **قال أبو حيان** :

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/١٥٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٩ .

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣١٩ .

Marfat.com

« وخشي الرحمن » أي المتصف بالرحمة ، والرحمةُ تدعو إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جل وعلا ، خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه ومعنى « بالغيب » أي بالخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر [1] ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديراً بالبشارة أي فبشره يا محمد بمغفرةٍ عظيمة من الله لذنوبه ، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم **قال ابن كثير** : الأجر الكريم هو الكثير الواسع ، الحسن الجميل وذلك إنما يكون في الجنة .. [2] ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أي نبعثهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿ ونكتب ما قدَّموا وآثارهم ﴾ **قال الطبري** : أي ونكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر ، ومن صالح الأعمال وسيئها « وآثارهم » أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد [3] ، وفي الحديث عن جابر قال « أراد بنو سَلِمةَ أن يتحولوا إلى قرب المسجد - والبقاع خالية - فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فقال : « يا بني سَلِمه دياركم تُكتبْ آثارُكم ؛ دياركم تُكتبْ آثاركم » فقالوا : ما كان يسرنا أنَا كنا تحولنا [4] » ﴿ وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وكلَّ شيءٍ من الأشياء أو أمرٍ من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى « يومَ ندعو كل أناسٍ بإمامهم » أي بكتاب أعمالهم ، الشاهد عليهم بما عملوه من خيرٍ أو شرّ ، **وقال مجاهد وقتاده** : هو اللوح المحفوظ [5] **وقال أبو حيان** : « ونكتب ما قدَّموا » أي ونحصي ،

---

(١) تفسير البحر المحيط ٣٢٥/٧ .
(٢) مختصر ابن كثير ١٥٦/٣ .
(٣) تفسير الطبري ٩٩/٢٢ .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه .
(٥) الأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال وهو اختيار ابن كثير .

Marfat.com

فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء [1] .. ثم ذكر تعالى للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحةٍ من السماء فقال ﴿ واضربْ لهم مثلاً أصحاب القرية﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية « إنطاكية » التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿ إذ جاءها المرسلون﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم **قال القرطبي** : وهذه القرية هي « إنطاكية » في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم « صادق » و « مصدوق » و « شمعون » أُمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلَّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله ، وقيل : هم رسل عيسى [2] ﴿ إذْ أرسلنا إليهم أثنين فكذبوهما﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿ فعزَّزْنا بثالث﴾ أي قوَّيناهما وشددنا أزرهما برسولٍ ثالث ﴿ فقالوا إنَا إليكم مرسلون﴾ أي نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ أي ليس لكم فضلٌ علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا ، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ؟ ﴿ وما أنزلَ الرحمنُ من شيء﴾ أي لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة ﴿ إنْ أنتم إلا تكذبون﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿ قالوا ربنا يعلمُ إنَا إليكم لمرسلون﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم الله يعلم أننا رسله إليكم . ولو كنا كذبة لا نتقم منا أشدَّ الانتقام . **قال ابن جزي** : أكدوا الخبر هنا باللام « لمرسلون » لأنه جواب المنكرين ، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد [3] ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي وليس علينا

---

(١) البحر المحيط ٣٢٥/٧ .

(٢) تفسير القرطبي ١٤/١٥ وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح لأن قوله تعالى « ما أنتم إلا بشر مثلنا » إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل .

(٣) التسهيل في علوم التزيل ١٦١/٣ .

Marfat.com

إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جلياً لا غموض فيه ، فإن آمنتم فلكم السعادة ، وإن كذبتم فلكم الشقاوة **قال أبو حيان** : وفي هذا وعيدٌ لهم ، ووصف البلاغ بـ « المبين » لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال ، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل ، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت [1] ﴿ قالوا إنّا تَطَيَّرْنَا بكم﴾ أي قال لهم أهل القرية : إنّا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان ، وترك عبادة الأوثان **قال المفسرون** : ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به ، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة ، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا : أعاذنا الله مما تدعوننا إليه [2] ، ثم توعَّدُوا الرسل بقولهم ﴿ لئن لم تنتهوا﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم ، ودعوتكم لنا إلى التوحيد ، ورفض ديننا ﴿ لنرجمنَّكُمْ وليمسنَّكُمْ منا عذابٌ أليمٌ﴾ أي لنرجمنكم بالحجارة حتى تموتوا ، ولنقتلنكم شرَّ قِتْلة ﴿ قالوا طائركم معكم﴾ أي قالت الرسل لهم : ليس شؤمكم بسببنا ، وإنما شؤمكم بسببكم ، وبكفركم ، وعصيانكم ، وسوء أعمالكم ﴿ أئن ذُكِّرتم﴾ ؟ شرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه أي أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله ، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟ ﴿ بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام ، وهو توبيخ لهم مع الزجر والتقريع ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجلٌ يسعى﴾ أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو ، يسرع في مشيه وهو « حبيب النجار » **قال ابن كثير** : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم

---

(١) تفسير البحر المحيط ٣٢٧/٧ .

(٢) حاشية شيخ زادة على البيضاوي ١٢٥/٣ .

Marfat.com

رجل من **أقصى** المدينة يسعى لينصرهم من قومه ، وهو – حبيب النجار – كان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه [1] **وقال القرطبي** : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال : هل من آية ؟ قالوا نعم نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك ! فقال إن هذا لعجب ، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة ؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، فلمَّا همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعاً وقال ما قصّه القرآن [2] ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله ، وإنما قال « يا قوم » تأليفاً لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة ، ثم كرر القول تأكيداً وبياناً للسبب فقال ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين ، الذين لا يسألونكم أجرة على الإيمان ، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله ﴿ ومالِيَ لا أعبدُ الذي فطرني وإليه تُرجعون﴾ تلطفٌ في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه ، ويختار لهم ما يختار لنفسه ، وفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم والمعنى أيُّ شيء يمنعني أن الذي أعبد خالقي أبدع خلقي وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله ؟ ﴿ أأتخذ من دونه آلهة﴾ استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٥٩/٣ والقول بأن اسم الرجل « حبيب النجار » مروي عن ابن عباس .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/١٥ وهذه رواية وهب ذكرها القرطبي .

Marfat.com

شيئاَ ؟ ﴿ إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضرٍ لا تُغنِ عني شفاعتُهم شيئاً﴾ أي هي فيْ المهانة والحقارة بحيث لو أراد اللهُ أن يُنزل بي شيئاً من الضُر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي ، فكيف وهي احجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع ؟ ﴿ ولا يُنقذون﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله ﴿ إني إذاً لفي ضلالٍ مبين﴾ أي إني إن عبدتُ غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي .. وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه ، وأشهر إيمانه فقال ﴿ إني آمنتُ بربكم فاسمعون﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم ، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي **قال المفسرون** : لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه ، وثبوا عليه وثبة رجلٍ واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم [1] **قال الطبري** : وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات ، وقيل : رموه بالحجارة حتى مات [2] ﴿ قيل ادخل الجنة﴾ أي فلما مات قال الله له : ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار ، جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة قال ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره ، وقال الله له « ادخل الجنة » فدخلها فهو يُرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سَقَم الدنيا وحُزْنها ونَصَبَها [3] ﴿ قال يا ليتَ قومي يعلمون . بما غفرلي ربي وجعلني من المكرمين﴾ أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنىَّ أن يعلم قومه بحاله ، ليعلموا حسن مآله أي يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفرلي ربي ذنوني ، وأكرمني بدخول جنات النعيم **قال ابن عباس** : نصح قومه في حياته ، ونصحهم بعد مماته [4] **قال أبو**

---

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣/١٥٩ . (٢) تفسير القرطبي ٢٢/١٠٤ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/١٦٠ .
(٤) هذا قول ابن عباس وقال صاحب الكشاف : وفي حديثٍ مرفوع : « نصح قومه حياً وميتاً » والمشهور أنه من كلام ابن عباس .

Marfat.com

السعود : وإنما تمنَّى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان ، جرياً على سَنَن الأولياء في الترحم على الأعداء [1] ﴿وما أَنْزَلْنَا على قومِهِ مِنْ بَعْدِه مِنْ جُنْدٍ من السَّمَاء﴾ هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم أي لم نحتج في إهلاكهم إلى إرسال جنودٍ من الملائكة من بعد قتلهم له ﴿وما كنا منزلين﴾ أي وما كنا لننزل الملائكة ، بل أمرهم كان أهون وأحقر من ذلك ﴿إنْ كانتْ إلا صيحةً واحدة فإذاهم خامِدون﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بهم جبريل ، فإذا هم ميتون لا حِراك بهم ، قد أُخمدت أنفاسهم حتَّى صاروا كالنار الخامدة **قال المفسرون** : وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم . وقد روي أنه لما قُتل « حبيب النجار » غضب الله تعالى له . فعجَّل لهم النقمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة . فماتوا عن آخرهم . فجعل طريق استئصالهم بالصيحة . ثم قال تعالى ﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم ، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزؤا به ، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان **قال في حاشية البيضاوي** : إنهم أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم أو يُتحسر عليهم ، فإن الأمر لفخامته وشدته ، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم ، وقال : يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين ، حيث بدلوا الإيمان بالكفر ، والسعادة بالشقاوة [2] ، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيّد

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٥٢ .

(٢) حاشية زادة على البيضاوي ٣/١٢٨ .

Marfat.com

المرسلين . ولَمّا مثّل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا قبلَهُمْ من القُرونِ أنهم إليهم لا يَرْجعون﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم [1] ؟ ﴿وإنْ كلٌ لمَّا جميعٌ لدنيا محضرون﴾ أي وأن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ؟ **قال أبو حيان** : وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب ، وثواب وعقاب[2] .

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي : ١ – التأكيد بأكثر من مؤكد لأن المخاطب منكر مثل ﴿إنك لمن المرسلين ، إنا إليكم لمرسلون﴾ فقد أُكد كل منهما بـ « إنَّ » و « اللام » ويسمى هذا الضرب إنكارياً . ٢ – الاستعارة التمثيلية ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ..﴾ الآية شبَّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفضاً له ولا التفاتاً ، وبمن سُدَّت الطُرقُ في وجهه فلم يهتد لمقصوده ، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية ٣ – الطباق ﴿من بين أيديهم .. ومن خلفهم﴾ ٤ – طباق السلب ﴿أأنذرتهم أم لم تُنذرهم﴾ ٥ – الجناس الناقص ﴿نحن نُحيي﴾ لتغير بعض الحروف ٦ – الإطناب بتكرار الفعل ﴿اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا

---

(١) مختصر ابن كثير ١٦١/٣ .

(٢) البحر المحيط ٣٣٥/٧ .

Marfat.com

يسألكم أجراً ﴾ ٧ – الاستفهام للتوبيخ ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ ؟ ٨ – الحذف لدلالة السياق عليه ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له ادخل الجنة ٩ – جناس الاشتقاق بين ﴿ تطيرنا .. وطائركم ﴾ وبين ﴿ أرسلنا .. والمرسلون ﴾ ١٠ – مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان ، وحسن الوقع على السمع ، وهو كثير مشهور .

تنبيه

من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز في القصص والأنباء ، والإشارة إلى روحها وسرّها ، لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار ، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة ، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله ، ولا اسم الرسل الكرام ، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة ، وقس على هذا سائر قصص القرآن . **قال الله تعالى** : ﴿ وآيةٌ لهم الأرضُ الميتة أحييناها .. إلى سلامٌ قولاً من رب رحيم ﴾

« من آية « ٣٣ » إلى « ٥٨ » »

• • •

المناسبة

لما ذكر تعالى قصة أهل القرية ، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين ، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية ، في إخراج الزروع والثمار ، وتعاقب الليل والنهار ، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار ، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث ، وردَّ عليها بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة .

Marfat.com

اللغـــــــة

﴿ آية ﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله قال أبو العتاهية :

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلـهُ ... أمْ كيفَ يَجْحَـده الجَاحِـدُ ؟
ولله في كل تحريكـــة ... وتسكينةٍ أبـــداً شاهـــد
وفي كل شيءٍ لـــه آيـــةٌ ... تـــدل علـــى أنـــه واحـــد

﴿ الأزواج ﴾ الأصناف والأنواع ﴿ نسلخ ﴾ السَّلْخ : الكشط والنزع قال تعالى « فانسلخ منها » ويقال : سلخ الجزار جلد الشاة أي نزع الجلد عن اللحم ﴿ العُرجون ﴾ من الانعراج وهو الانعطاف ، والعرجون : عود عِذْق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب قال الجوهري : هو أصل العِذق الذي يعوَجُّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً [١] ﴿ المشحون ﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿ صريخ ﴾ مغيث ﴿ يَخِصِّمون ﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿ الأجداث ﴾ جمع جَدَث وهو القبر ﴿ ينسلون ﴾ يسرعون في الخروج ، يقال : عسل الذئبُ ونسَل أي أسرع في المشي [٢] .

التفسير

﴿ وآيةٌ لهم الأرض المَيْتَةُ أحييناها ﴾ أي ومن الآيات الباهرة ، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة ، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع ، أحييناها بالمطر قال المفسرون : موتُ الأرض جدبها ، وإحياؤُها بالغيث ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كل زوجٍ بهيج ولهذا قال تعالى بعده ﴿ وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي

(١) انظر القرطبي ١٥/٣١ والقاموس المحيط والصحاح .
(٢) تفسير القرطبي ١٥/٤٠ .

Marfat.com

وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا **قال القرطبي** : نَّبههم تعالى بهذا على احياء الموتى ، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته ، بالأرض الميتة أحياها بالنبات ، وإخراج الحب منها ، فمن الحبّ يأكلون وبه يتغذون [1] ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيلٍ وأعنابٍ ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب ، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذُكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم ، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم **قال ابن كثير** : لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم ، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها . وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم ، لا بسعيهم وكدِّهم ، ولا بحولهم وقوتهم ولهذا قال ﴿ أفلا يشكرون ﴾ ؟ أي أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم ؟ واختار ابن جرير أنَّ « ما » بمعنى الذي أي ليأكلو من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسوه ونصبوه [2] ﴿ سبحانَ الذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كلَّها ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها ، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿ ممَّا تُنْبِتُ الأرضُ ومن أَنْفُسِهِمْ ومما لا يعلمون ﴾ أي ممَّا تخرج الأرضُ من النخيل والأشجار ، والزروع والثمار ، ومن أنفسهم من الذكور والإناث ، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء [3] الغريبة كما قال تعالى « ومن كل شيٍ خلقنا زوجين لعلكم

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٢٥ .

(٢) مختصر ابن كثير ٣/١٦٢ .

(٣) سبحان الله ما اعّظم قدرة الله !! ، لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط ، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ زمن قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات . =

Marfat.com

تَذَكَّرون » ﴿وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذاهم مُظْلمون﴾ أي وعلامةٌ أخرى لهم على كمال قدرتنا الليلُ نزيل عنه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام ، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض ، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويُكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿والشمسُ تجري لمستقرٍ لها﴾ أي وآيةٌ أخرى لهم الشمسُ تسير بقدرة الله في فَلَكٍ لا تتجاوزه ولا تتخطَّاه لزمنٍ تستقر فيه ، ولوقتٍ تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم **قال ابن كثير** : وفي قوله تعالى « لمستقرٍ لها » قولان : **أحدهما** : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي ﷺ قال : يا أباذرٍ أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : اللهُ ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش . » الحديث **والثاني** : أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة ، حيث يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتُكوَّر وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وقرىء « لا مستقر لها » أي لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً ، لا تفتر ولا تقف [1] ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي ذلك الجري[2] والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه ، العليم بخلقه ﴿والقمَر

فقد ثبت أن الذرة – وهي أصغر أجزاء المادة – مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي « سالب وموجب » يتزاوجان يتحدان ، وان بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة ، فسبحان العلي القدير القائل « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٦٢/٣ .

(٢) يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره الظلال : « والشمس تدور حول نفسها وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه ، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول إنها

Marfat.com

قدَّرْناه منازل﴾ أي والقمَر قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور ، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة ، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها ، فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس ، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس **قال ابن كثير** : جعل الله القمر لمعرفة الشهور ، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار ، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر ، فالشمس تطلع كل يوم ويغرب في آخره ، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً . يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار . وهي كوكب نهاري ، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزله ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم **قال مجاهد** : أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى . ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر [1] ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أَنْ تُدْرِكَ القمَر﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحوَ نوره ، لأن ذلك يُخِلُّ بتلوين النبات ، ومصلحة العباد **قال الطبري** : أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر ، فيُذهبُ ضوءُها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها ﴿ولا الليلُ سابقُ النهار﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فَيَذْهبُ بضيائه فتكون الأوقات

« تجري لمستقرٍ لها » هذا المستقر الذي تنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى .. وحين تتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء . ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم . وصدق الله « ذلك تقدير العزيز العليم » .

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٦٣ .

Marfat.com

كلها ليلاً [1] ﴿وكلٌ في فَلَكٍ يسبحون﴾ أي وكلٌ من الشمس والقمر والنجوم يدورون في فلك السماء **قال الحسن** : الشمس والقمر والنجوم في فَلَك بين السماء والأرض ، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت [2] **والغرضُ من الآية** : بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق ، فالشمس لها مدار ، والقمر له مدار ، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه ، ولا يطغى أحدهما على الآخر كما قال قتادة : « لكلٍ حدٌّ وعلم لا يعدوه ، ولا يقصّر دونه » حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم ، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى « وجُمِعَ الشمس والقمر » فيختل نظام الكون ، وتقوم القيامة ، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي [3] ﴿وآيةٌ لهم أنا حملنا ذريتهم في الفُلْك المشحون﴾ أي وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين – وهم ذرية آدم – في سفينة نوح المملوءة بالناس والدواب والأمتعة والطعام . **قال الضحاك** : هي سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كلٍ زوجين اثنين **قال في التسهيل** : وإنما خصَّ ذريتهم بالذكر ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم . ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة [4] ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان . وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢٣ . (٢) تفسير القرطبي ٣٣/١٥ .

(٣) يقول سيد قطب رحمه الله « المسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة وقد قدَّر الله خالق هذا الكون ان تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع ، وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح ، فهي – على ضخامتها – لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب » ! !

(٤) التسهيل في علوم التنزيل ١٦٤/٣ .

Marfat.com

وقال ابن عباس : هي الإبل وسائر المركوبات ، **فهي** في البر مثل السفن في البحر [1] ﴿وإن نشأ **نغرقْهم** فلا صريخ لهم﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿ولا هم يُنْقَذون﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم ، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم .. بيَّن تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة ، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرّفه بحكم خواص السفن ، وخواص الماء ، وخواص الريح ، وكلُّها من أمر الله وخلقه وتقديره ، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهبِّ الهواء ، وإلاّ تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار ، والذين ركبوا البحار ، وشاهدوا الأخطار ، يدركون هول البحر المخيف ، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات ، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى « إلا رحمةً منا » فسبحان الله القدير الرحيم ! ! ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم تُرحمون﴾ لما ذكَّرهم تعالى بدلائل قدرته ، وآثار رحمته ، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق ، وإعراضهم عن الهدى والإيمان ، مع كثرة الآيات الواضحات . والشواهد الباهرات والمعنى وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه ، واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل ، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا . وجواب الشرط محذوف تقديره أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى « إلا كانوا عنها معرضين » **قال القرطبي** :

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٣٥ ، هناك قول آخر عن عباس أن المراد بقوله « من مثله » السفن أي خلق لهم سفناً أمثال سفينة نوح يركبونهاوهو **الأظهر لقول** بعده « وإن نشأ نغرقهم »

Marfat.com

والجواب محذوف والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ، ودليله الآية التي بعدها « وما تأتيهم من آية .. » فاكتفى بهذا عن ذلك [1] ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول – كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها – إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء **قال أبو السعود** : وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها ، المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها ، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه ، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات ، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى ، وتفردة بالألوهية [2] ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم اللهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكماً بهم : أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله ؟ ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله **قال ابن عباس** : كان بمكة زنادقة فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله لا نفعل ، أيفقره الله ونطعمه نحن [3] ؟ وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون : لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر ، وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء ، فما بالكم تطلبون

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٣٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٢٥٥ .

(٣) تفسير القرطبي ١٥/٣٧ قال القرطبي : وإنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين .

Marfat.com

إطعامهم منا ؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاّق ، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً ، لينظر كيف عطف الغني ، وكيف صبر الفقير ، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً ، وأمر الغَّني بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله ، ولكنْ للابتلاء والله يفعل ما يشاء ، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه « لا يُسأل عما يفعل وهم يَسألون » ثم أخبر تعالى عن إنكار للمشركين للآخرة ، واستبعادهم لقيام الساعة فقال ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به ؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿ وهم يَخِصِّمُون﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم ، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم ، فيموتون في أماكنهم **قال ابن كثير** : وهذه – واللهُ أعلم – نفخة الفزع ، ينفخ إسرافيل في الصور والناسُ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذْ أمر اللهُ إسرافيل فنفخ في الصور نفخةً يطوّلها ويمدُّها ، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء [1] فذلك قوله تعالى ﴿ فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً بأمرٍ من الأمور ، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع منه ذلك **وفي الحديث** : « لتقومَنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يُليط

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٦٥ وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وأن المراد بها نفخة الفزع وقال القرطبي : هي نفخة الصَّعَقْ التي يموت بها جميع الأحياء .

Marfat.com

حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقي فيه ، ولتقومَنَّ الساعةُ وقا رفع أُكْلته إلى فيه فلا يَطْعمها » [1] ثم تكون هناك النفخة الثانية وهي « نفخة الصَّعْق » التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيّ القيوم ، ثم تكون النفخة الثالثة وهي « نفخة البعث والنشور » التي يخرج الناسُ بها من القبور ، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ ونُفخ في الصور فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي **قال الطبري** : « ينسلون » يخرجون سراعاً ، والنَّسَلان : الإسراعُ في المشي [2] ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ ؟ أي يقولون يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها ؟ **قال ابن كثير** : وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد ، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون [3] ﴿ هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَق المرسلون﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء ، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿ إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحةً واحدةً يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون **قال الصَّاوي** : وهذه الصيحة هي قول إسرافيل : أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتقطعة ، والأجزاء المتفرقة ، والشعور المتمزقة ، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ثم ينفخ في الصور فإذاهم مجموعون في موقف الحساب [4] ﴿ فاليوم لا تُظلم نفسٌ شيئاً ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة -

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) الطبري ١١/٢٣ .
(٣) مختصر ابن كثير ١٦٦/٣ .
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٢٨/٣ .

Marfat.com

لا تُظلم نَفس شيئاً ، سواءً كانت هذه النفس برَّة أو فاجرة ، ولا يُحمَّل الإنسان وزر غيره وإنما يجُازي كلٌ بعمله **قال أبو السعود** : وهذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة ، حين يرون العذاب المُعَدَّ لهم تحقيقاً للحقّ ، وتقريعاً لهم [1] .. ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال ﴿إن أصحاب الجنةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكهون﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم - يوم الجزاء - مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار ، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين ، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار **قال أبو حيان** : والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال **وقال ابن عباس** : شُغلوا بافتضاض الأبكار ، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار ، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا [2] ﴿هم وأزواجُهم في ظلالٍ على الأرائِكِ متكئون﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة ، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير ، متكئون على السرر المزينة بالثياب والستور ﴿لهم فيها فاكهةٌ﴾ أي لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿ولهم ما يَدَّعون﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » ﴿سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم﴾ أي لهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم ، وفي الحديث « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى « سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم » قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيٍ من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم [3] » .

---

(١) أبو السعود ٤/٢٥٧ .

(٢) البحر المحيط ٧/٣٤٢ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن كثير : وفي إسناده نظر كذا في المختصر لابن كثير

Marfat.com

البلاغة

تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي : ١ – للتنكيرُ والتفخيم والتعظيم ﴿وآيةٌ لهم﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله . ٢ – الطباق بين الموت والإحياء ﴿الأرضُ الميتةُ أحييناها﴾ . ٣ – الاستعارة التصريحية ﴿وآية لهم الليلُ نسلخ منه النهار﴾ شبَّه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة ، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية ، وهذا من بليغ الاستعارة ، وبين الليل والنهار طباق . ٤ – التشبيه المرسل المجمل ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء : الرقة ، والانحناء ، والصفرة ، ولما لم يذكر سمي مجملاً . ٥ – تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر) فإنه أبلغ من أن يقول « لا ينبغي للشمس أنِ تدرك القمر » وآكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإنَّ قولك « أنت لا تكذب » بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك « لا تكذب » فإنه أشدُّ لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن [1] . ٦ – تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وكلٌ في فَلَك يسبحون﴾ بدل يسبح ، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بصمير جمع المذكر، والذي سوَّغ ذلك وصفهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء [2] . ٧ – الاستعارة اللطيفة ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات ، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم لأنها أشبه الأشياء بها وهو أبلغ من قوله : من بعثنا من

١٦٧/٣ ، ورواه ابن ماجه في سننه .

(١) انظر حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ١٣٢/٣ .

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٣٢٦/٣ .

Marfat.com

مماتنا . ٨ – الإيجاز بالحذف ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا ما وعدكم به الرحمن . ٩ – الطباق ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ ؟ ١٠ – السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾ ﴿وفجرنا فيها من العيون﴾ ﴿من أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ ﴿فإذا هم مظلمون﴾ ومثل ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ و ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وهو من المحسنات البديعية (١) .

قال تعالى ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون .. إلى ملكوت كل شيء وإليهِ ترجعون﴾

« من آية « ٥٩ » إلى « ٨٣ » نهاية السورة

● ● ● ●

المناسبة

لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم ، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، وختم السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت ، والحساب والجزاء .

اللغة

﴿امتازوا﴾ تميزوا وانفصلوا ، والتمييزُ : التفريق بين أمرين ﴿جِبلاً﴾ بكسر الجيم خلقاً جمع جِبِلَّة ومنه « والجِبِلَّةَ الأولين » مشتق

---

(١) ذكرنا بعض الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر ، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز عن وصفه اللسان ، فسبحانه منزل القرآن ! !

Marfat.com

من جَبَلَ اللهُ الخلقَ أي خلقهم ﴿طمسنا﴾ الطمسُ : إذهابُ الشي وأثره جملةً كأنه لم يوجد ﴿اصلوها﴾ ادخلوها وذوقوا سعيرها ﴿مسخناهم﴾ المسخ : التحويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نعمّره﴾ التعمير : إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿ننكِّسْه﴾ التنكيسُ : قلب الشيء رأساً على عقب يقال : نَكَسْتُ الشيء نكساً إذا قلبته على رأسه ومنه « ثم نُكِسُوا على رءوسهم » ﴿رميم﴾ الرميم : البالي المفتّت يقال رمَّ العظم أي بلِيَ فهو رميم .

النـــزول

روي أن « أُبيّ بن خَلَف » من صناديد كفار قريش جاء بعظم بالٍ إلى النبي ﷺ ففتّه بيده ثم قال : أتزعم يا محمد أن الله يُحيي هذا بعدما رَمَّ ؟ فقال له النبي ﷺ نعم يحييه ، ثم يبعثك ويدخلك النار فأنزل الله تعالى ﴿أو لم ير الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم [1]﴾

التفســـــير

بعد أن بيَّن تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وامتازوا اليومَ أيُّها المجرمون﴾ أي تميزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين ، انفردوا عنهم وكونوا جانباً **قال القرطبي** : يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال ، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة [1] ﴿ألم أعهدْ إليكم يا بني آدم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وهو توبيخٌ للكفرة المجرمين أي ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ﴿ألاَّ تعبدوا الشيطان﴾ أي ألاّ تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من

(١) انظر تفسير القرطبي ٥٨/١٥ والبحر المحيط ٣٤٨/٧ .

(١) تفسير القرطبي ٤٦/١٥ .

Marfat.com

معصيتي ؟ ﴿ إنه لكم عدوٌ مبين﴾ تعليلٌ للنهي أي لأنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة ، فكيف يطيع الإنسان عدوه ؟ ﴿ وأن اعبدوني﴾ اي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي ، بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري ﴿ هذا صراطٌ مستقيم﴾ أي هذا هو الدين الصحيح ، والطريق الحقُّ المستقيم ﴿ ولقد أضلَّ منكم جِبلاً كثيراً﴾ تأكيد للتعليل أي ولقد أضلَّ الشيطان خلقاً منكم كثيرين ، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ **قال الطبري** : أي صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبدوه [1] ﴿ أفلم تكونوا تعقلون﴾؟أي **أفما** كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمرِ ربكم ؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار .. ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال ﴿ هذه جهنمُ التي كنتم تُوعدون﴾ أي هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها **قال الصاوي** : هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم ، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع [2] ﴿ اصلوها اليومَ بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا ، وهو أمر إهانةٍ وتحقير مثل قوله « ذقْ إنك أنت العزيز الكريم » ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد فقال ﴿ اليومَ نختم على أفواههم﴾ أي في هذا اليوم – يوم القيامة – نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها وعن الكلام ﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال « يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول : أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول المَلَك : أما

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٢٣ .

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٢٩/٣ .

Marfat.com

عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا فيقول : لا وعزتِك أي رب ما عملتُه ، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه ثم تلا « اليوم نختم على أفواههم [1] » وفي الحديث « يقول العبد يا ربِّ ألم تجُرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول العبد فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، ثم يختم على فيه ويقال لجوارحه انطقي ، فتنطق بأعماله ثم يخُلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْداً لكُنَّ وسُحقاً فعنكنَّ كنت أناضل [2] » ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾ أي لو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ ؟ **قال ابن عباس** : المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحقِّ [3] ، وهو تهديد لقريش ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم ﴿ فما استطاعوا مُضياً ولا يرجعون﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا ، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمال فقال ﴿ ومَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ﴾ أي ومن نُطِلْ عمره نقلبه في أطوار منتكساً في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً **قال قتادة** : يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا ، فطولُ العمر يصيّرُ الشباب هَرَماً ، والقوةَ ضعفاً ، والزيادة نقصاً ﴿ أفلا يعقلون﴾ ؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم ؟ **قال ابن جزي** : والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ

---

(١) الطبري ١٧/٢٣ .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم .

(٣) تفسير القرطبي ٤٩/١٥ .

Marfat.com

الكفار ، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا اهرم [1] ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أي وما علمنا محمداً الشعر ، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعراً **قال المفسرون** : هذا ردٌّ على الكفار في قولهم إنه شاعر ، وإن ما أتى به من قبيل الشعر ، فالرسول ﷺ ليس بشاعر ، والقرآن ليس بشعر ، لأن الشعر كلام مزخرف موزون ، مبني على خيالات وأوهام واهية ، حتى قيل « أعذبُه أكذبُه » فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر ! ! وقد أكثر الناسُ في ذم الشعر ومدحه ، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رحمه الله « الشعر كلامٌ ، والكلام منه حسنٌ ، ومنه قبيح » ﴿إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده ، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حيَّ القلب مستنير البصيرة ، وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به ﴿ويَحِقَّ القول على الكافرين﴾ أي أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين [2] لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به **قال البيضاوي** : وجَعَلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم ، وسقوط حجتهم ، وعدم تأملهم ، أمواتٌ في الحقيقة [3] .. ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه ، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره فقال ﴿أو لم يَرَوْا أنَّا خلقنا لهم مما عملتْ أيدينا أنعاماً﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب أي أو لم ينظروا نظر اعتبار ، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا – من غير واسطة ، وبلا شريك ولا معين – مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٦٦/٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٦١/٤ .

(٣) تفسير البيضاوي ١٣٦/٢ .

Marfat.com

قدرتنا ؟ ! ﴿ فهم لها ما لكون﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله ﴿ وذللناها لهم﴾ **قال ابن كثير** : المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير ، فسبحان من سخر هذا لعباده [1] ! ! ﴿ فمنها ركوبُهم ومنها يأكلون﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر ، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ﴿ ولهم فيها منافعُ ومشارب﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة – غير الأكل والركوب – كالجلود والأصواف والأوبار ، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها « من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » ﴿ أفلا يشكرون﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة ؟ **والغرضُ** من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم .. ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام ، وذلك نهاية الغيّ والضلال فقال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً لعلهم يُنصرون﴾ أي وعبد المشركون آلهةً من الأحجار رجاءَ أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء ، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿ لا يستطيعون نصرهم﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال ، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة ﴿ وهم لهم جندٌ محضرون﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم ، والذبِّ عنهم ، وفدائهم بالروح والمال ، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع **قال قتادة** : المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً ، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام [2] **وقال القرطبي** : المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٧٠ .

(٢) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه انظر تفسير الطبري ٢٣/٢٠ .

Marfat.com

من قدرتنا ، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً ، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم ، فهم لهم بمنزلة الجند ، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم [1] . ﴿ فلا يحزنك قولُهم ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك ، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر ، وهذه تسليةٌ للنبي عليه السلام ، وهنا تمَّ الكلام ثم قال تعالى ﴿ إنَّا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم ، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم ، فنجازيهم عليه ، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد .. ثم أقام الدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، على البعث والنشور فقال ﴿ أو لم يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خلقناهُ من نُطفةٍ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌ للتوبيخ والتقريع أي أو لم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار ، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنّا خلقناه من شيٍ مهينٍ حقير هو النطفة « المني » الخارج من مخرج النجاسة ؟ ﴿ فإذا هو خصيمٌ مبين ﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل ، يخاصم ربه وينكر قدرته ، ويكذب بالبعث والنشور ، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة ، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث ؟ **قال المفسرون** : نزلت في « أُبيَّ بن خَلَف » جاء بعظم رميم ، وفتَّته في وجه النبي الكريم وقال ساخراً : أتزعم يا محمد أنَّ الله يُحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا ؟ فقال ﷺ له : نعم يبعثك ويدخلك النار [2] » ﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خَلْقَه ﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم ، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه ، ونسيَ أنا أنشأناه من نطفةٍ ميتة وركبنا فيه الحياة ، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ، وجوابه من نفسه حاضر ﴿ قال من يُحيي العظامَ وهي رميم ﴾ أي وقال هذا

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٥٦ بشيء من الاختصار .

(٢) قال في البحر : وقيل إنها نزلت في « العاص بن وائل » والأصح أنها في « أبي بن خلف » وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير .

Marfat.com

الكافر : من يحيي العظام وهي بالية أشدَّ البِلى ، متفتتةٌ متلاشية ؟ **قال الصاوي** : أي أورد كلاماً عجيباً في الغرابة هو كالمثل ، حيث قاسَ قدرتنا على قدرة الخلق [1] ﴿ قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ أي قل يا محمد تخريساً وتبكيتاً لهذا الكافر وأمثاله : يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم ، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء ، فالذي قدر على البداءة . قادر على الإعادة ﴿ وهو بكل خلقٍ عليمٌ ﴾ أي يعلم كيف يخلق ويُبدع . فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر ، لا يمتنع عليه فعل ما أراد ، ولا يعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقاً جديداً [2] **قال أبو حيان** : ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة ، وهو إبراز الشيء من ضده ، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر ، ألا ترى الماء يطفىء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء ، والأعراب تُوري النار من المرْخ والعُفار ، وفي أمثالهم « في كل شيء نار ، واستمجد المَرْخُ والعُفَار [3] » ولقد أحسن القائل :

جمعُ النقيضين من أسْرارِ قدرتِـهِ ... هَـذَا السَّحَابُ به مَاءٌ بهِ نارُ

﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿ أَوَليس الذي خلق السمواتِ والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم ﴾ ؟ أي أو ليس الذي خلق السمواتِ والأرضَ مع كبر جرمهما ، وعظم شأنهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها ؟ ﴿ بلى وهو الخلاق العليم) أي بلى هو القادر على ذلك ، فهو الخلاَّق المبدع في الخلق والتكوين ، العليم بكل شيء ﴿ إنما امره إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٣١ .

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٢١ .

(٣) البحر المحيط ٧/٣٤٨ .

Marfat.com

فيكون﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء لأن أمره بين الكاف والنون ، فمتى أراد تعالى شيئاً وُجد ، بدون تعب ولا جهد ، ولا كلفة ولا عناء ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء﴾ أي تنزَّه وتمجد عن صفات النقص الإله العظيم الجليل ، الذي بيده المُلْك الواسع ، والقدرة التامة على كل الأشياء ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء .. ختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم الرائع ، الدال على كمال القدرة ، وعظمةِ المُلك والسلطان ، الذي تفرد به خالق الأكوان .

البــلاغــة

تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي : ١ - طباق السلب ﴿ألاّ تعبدوا الشيطان ... وأن اعبدوني﴾ فالأول سلب ، والآخر إيجاب . ٢ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقريع ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ ؟ ﴿أفلا يشكرون﴾ ؟ ٣ - الطباق بين ﴿مُضياً .. ويرجعون﴾ ﴿يُسرون .. ويعلنون﴾ وهو من المحسنات البديعية . ٤ - التشبيه البليغ لحذف أداة التشبيه ووجه الشبه ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع . ٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ بعد قوله ﴿فمنها ركوبُهم﴾ الآية وفائدته النعمة ، وتعظيم المِنّة . ٦ - المقابلة ﴿لينذر من كان حياً﴾ الآية قابل بين الإنذار والإعذار ، وبين المؤمنين والكفار . وهو من ألطف التعبير . ٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ الأنعام تُخلق ولا تعمل ، ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه ويصنعه بنفسه ، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية [١] ٨ - صيغة المبالغة ﴿خصيم مبين﴾ الخلاّق

(١) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/١٤٠ .

Marfat.com

العليم﴾ . ٩ – الاستعارة التمثيلية ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء ، بأمر الآمر المطاع من غير توقف ولا امتناع ، فإذا أراد شيئاً وُجد من غير إبطاءٍ ولا تأخير ، وهو من لطائف الاستعارة [1] **فائدة** : الملكوت صيغة مبالغة من المُلْك ، ومعناه الملك الواسع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة . **تنبيه** : قال العلامة ابن كثير : « ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة « اللهم لولا أنت ما اهتدينا » وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته « أنا النبيُ لا كذب : أنا ابن عبد المطلب » وقوله « هل أنتِ إلا أصبعٌ دميتِ : وفي سبيل الله ما لقيت » الخ إنما وقع اتفاقاً من غير قصد إلى قول الشعر ، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفواً وكل هذا لدينا في قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ . فتدبره فإنه نفيس .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة يس

---

(١) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ١/١٩٢

Marfat.com

فهرس

١ـ سُورة الكَهْف	٩
٢ـ سُورة مَريَمْ	٥٠
٣ـ سُورة يسٓ	٧٧

Marfat.com

مؤسسة مناهل العرفان
دمشق - بيروت

74

Marfat.com

مؤسسة مناهل العرفان
دمشق - بيروت

74

Marfat.com